تدمير أوروبا (1941 ـ 1944)

ليس التدمير الذي نعنيه، وعلينا إخضاعه ببطء لتفكير أشد صرامة، سيئا بمعنى الرداءة الأخلاقية لأصحابه المحتملين. إن السيئ ذاته هو بالأحرى مدمر كشر. من هنا لا يستطيع الاستنكار الأخلاقي، حتى إن جعل الرأي العالم العالمي بوقا له، شيئا ضد التدمير

مارتن هايدجر
حديث مسائي في معسكر أسرى حرب

وجدت انتصارات الرايش الثالث صدى عظيما في العالم العربي، الذي كان يراقب عام 1940/ 1941 انهيار فرنسا وضعف الإمبراطورية البريطانية المتعاظم. بينما كان دخول إيطاليا الحرب ووصول لجنة هدنة من دول المحور إلى سوريا الخاضعة لرقابة فرنسية يشيران بطريقة بليغة إلى تبدل شديد يستحيل تجاهله في موازين القوى تشهده منطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى. بدورها، أبدت القيادة الفارسية بزعامة الشاه رضا بهلوي تعاطفا جليا مع ألمانيا. وفي النهاية، أعطى هجوم رومل نحو مصر يوم 31 آذار 1941 قوة دفع إضافية إلى القوى المعادية لبريطانيا، التي كان مقدرا لها أن تنفجر في بغداد.

ركب فيلمي الخاص

أبلغ جروبا يوم 27 آب 1940 وزير الخارجية ريبنتروب عن إمكانية الدخول في علاقة أوثق مع الحكومة العراقية[1]، فقد اقترحت بغداد عقد معاهدة سرية بين العراق والألمان والحكومة الإيطالية، تحدد جميع تفاصيل التعاون الودي المنشود، على أن تكون أنقرة مكان المفاوضات من أجلها، بعد أن أجبرت بريطانيا العظمى، الدولة الغريبة عن المنطقة، العراق على قطع علاقاته الديبلوماسية مع ألمانيا. صحيح أنه لم يكن لدى الحكومة العراقية من خيار غير الرضوخ للضغط، إلا أنها رفضت طلبا بريطانيا بإعلان الحرب على ألمانيا. كما منحت مفتي القدس، الذي يعتبر القوة الدافعة وراء التحريض المعادي لبريطانيا في فلسطين، حق اللجوء في بغداد منذ انفجار الحرب، وسمحت له بمواصلة نشاطه السياسي دون أن يتمكن البريطانيون من العمل ضده، بسبب التغطية الكبيرة التي يخصه بها القوميون العرب.

في 26 آذار 1941، قبل خمسة أيام من هجوم رومل في شمال أفريقيا، كانت تدور في برلين أحاديث حول عمليات سرية في العراق. وقد سأل فورمان، مساعد وزير الخارجية، رئيس شعبة مكافحة التجسس الأميرال كاناريس إن كان على جنرال سلاح الجو هيلموت فيلمي السفر مستترا في مهمة سرية إلى العراق، فرد الأميرال بتحفظ، لاعتقاده أن المشروع لا يعد بالنجاح، وقال إنه يريد عوضا عن ذلك إرسال بعض رجال شعبته إلى بغداد.

بعد حوالي أسبوع، في ليلة 1 إلى 2 نيسان 1941، أسقط ضباط عراقيون حكومة بلدهم، وشكلوا حكومة عسكرية، وعينوا يوم 10 نيسان ولي عهد جديد وسموا رشيد عالي الكيلاني رئيسا للوزراء، وكان هذا السياسي النشيط رئيس حكومة عام 1933، وعرف كنصير مقتنع لدول

1. نشرات ميكروفيلم الأرشيف القومي في وزارة الخارجية الألمانية، ت 120/ 63.

المحور، يرتبط بعلاقات شخصية مع جروبا ولا يخفي إعجابه بالرايش الثالث، منذ أمضى عام 1936 بضعة أسابيع في برلين.

انتمى الكيلاني إلى أسرة تمتعت بأعظم صيت في العالم الإسلامي، فقد سبق لأحد أجداده أن أسس في بغداد القرن الثاني عشر أخوية القادرية، التي انتشرت خلال القرون التالية في أفغانستان والهند قبل كل شيء. لكن موقع الكيلاني كممثل قيادي للعالم العربي لم يكن بمنأى عن التحدي، فقد واجه منافسة من مفتي القدس، سليل أسرة الحسيني الفلسطينية المرموقة.

في الوقت الذي تولى فيه الكيلاني حكومة بغداد، فتح هجوم القوات المسلحة الناجح في شبه جزيرة البلقان ضد يوغسلافيا واليونان نقطة انطلاق جيوستراتيجية لشن عمليات في الشرق. الآن، صار وضع البريطانيين الجيوستراتيجي حرجا حقا، وهددت حكومة العراق الجديدة إمدادات النفط الإمبراطورية، وقوضت في آن معا مكانة البريطانيين في المنطقة بأسرها وأعطت برلين الفرصة لتوطيد أقدامها في الشرق.

في هذه اللحظة، اكتسبت قاعدة الحبانية الجوية أهمية استراتيجية بالنسبة إلى البريطانيين. هذا الموقع، الذي يبعد حوالي 60 كيلومترا إلى الغرب من بغداد، كان مدرسة طيارين بريطانية في السلم، فتوسع بناؤه الآن لجعله صالحا للاستخدام الحربي، وقدمت إليه تعزيزات بريطانية من مصر والهند. رفضت الحكومة العراقية يوم 28 نيسان 1941 السماح لسفينتي نقل وإمداد الرسو في ميناء البصرة. ثم تفاقم الوضع أكثر، عندما تم في اليوم التالي انتهاك سيادة العراق وإفراغ السفينتين، وردت وحدات من الجيش العراقي يبلغ تعدادها 9000 رجل مزودة بثمانية وعشرين مدفعا على ذلك باحتلال مرتفعات تقع جنوب الحبانية يوم 30 نيسان.

كانت حكومة الكيلاني لا تزال مترددة في القيام بعمل عسكري ضد البريطانيين. ولكن، وبينما كانت بغداد تتكلم، أمر وزير المستعمرات

البريطاني ونستون تشرشل بعمل هجومي ضد حكومتها، فهاجمت طائرات سلاح الجو الملكي المرابطة في الحبانية المطارات والمواقع العراقية، وقضت في طلعات قليلة على سلاح الجو العراقي الصغير، وكسرت طوق الحصار حول القاعدة الجوية البريطانية، فتراجعت الوحدات العراقية من محيطها المباشر ليلة 5 / 6 أيار.

أرسلت الحكومة العراقية يوم 4 أيار 1941 نداء استغاثة ملح إلى برلين. وبعد يومين، في 6 أيار، قررت قيادة القوات المسلحة العليا مساندة العراق، في حين أرسلت وزارة الخارجية جروبا إلى بغداد، فوصلها يوم 11 أيار عبر حلب والموصل، وسمحت حكومة بيتان في فيشي بهبوط طائرات ألمانية في مطارات سوريا الفرنسية، بطلب من حكومة ألمانيا، كما أمرت فيشي بإرسال أسلحة من سوريا إلى العراق لتستخدم ضد البريطانيين. وفي العاشر من أيار وصل من باريس إلى بيروت المبعوث الألماني ران، الذي باشر إرسال السلاح والذخيرة إلى العراق، بالتعاون مع الجنرال دنز، الألزاسي وآمر الجيش الفرنسي في سوريا.

خصصت ألمانيا سربين من سلاح الجو بقيادة الرائد أكسيل فون بلومبرج لتقديم دعم عسكري إلى بغداد. إلا أن الطيار الشاب، ابن المارشال ووزير الحرب السابق، أصيب بجرح قاتل قبل قليل من هبوطه في مطار بغداد. هل أصابته طلقة بريطانية أثناء القتال الجوي، أم إنه تبع نصيحة جروبا وقام بـ«جولة تكريم» رمزية فوق العاصمة العراقية؟. لم تقم الطائرات الألمانية بأي هجوم جوي بالقنابل قبل يوم 16 أيار، حين انطلقت من الموصل وشنت غارة على مطار الحبانية، الذي قصفته ست مرات بقوى ضعيفة. وعندما دمر البريطانيون الطائرات الألمانية وهي جاثمة على الأرض في تدمر والموصل، حسم مصير سربي الطائرات بما لهما من قدرات قليلة، وتبين أن الحر، والافتقار إلى الإمداد والتنظيم الأرضي، وإلى التنسيق مع الجيش العراقي كان قد حكم مسبقا بالفشل على مشروع سلاح الجو الألماني.

بعد أسبوع من ذلك، ودع نيدرماير عميد كلية الفلسفة وذهب إلى الحرب. في اليوم التالي، قررت قيادة القوات المسلحة العليا إرسال بعثة عسكرية إلى العراق تحت اسم «ركب فيلمي الخاص»، الذي كان مخططا أن يصير هيئة قيادية عليا لمجمل الشرق الأدنى، وضم في نهاية أيار من عام 1941 أربعين ضابطا وصف ضابط وجندي بقيادة الجنرال الطيار فيلمي. كما تقرر أن يلحق بهؤلاء وحدة خاصة من شعبة مكافحة التجسس اسمها «براندنبرج» يرتدي رجالها بذات مناطق حارة ويضعون شارات عراقية.

كان فيلمي، الذي ولد في 28 أيار عام 1885 في برلين، قائد شعبة الطيارين 300 في فلسطين بين 1916 و1918، حيث يحتمل أن يكون قد قابل نيدرماير هناك لأول مرة في شتاء عام 1917 / 1918. فيما بعد، انضم فيلمي إلى طياري جيش الرايش، الذين واصلوا تدريبهم في ليبشك، قبل أن يسهموا منذ عام 1933 في البناء العاصف لسلاح الجو الألماني. بعد ترقيته عام 1938 إلى جنرال طيار، أعفي فيلمي قبيل شن حملة فرنسا عام 1940 من منصبه كآمر للأسطول الجوي الثاني بسبب مشكلة تتعلق بالسرية. إلا أنه استعاد نشاطه بعد عام، وسمي في أيار 1941 قائدا للبعثة العسكرية، التي حملت اسمه، وقيض لها أن تصير مشروعا عائليا، لأن جروبا وفيلمي كانا نسيبين.

كان نيدرماير نائب فيلمي وأعلى ضباط الجيش رتبة في «الركب الخاص ف»، الذي حددت مهامه واهدافه في توجيه قيادي أقره هتلر يوم 23 أيار 1941 تحت اسم: «توجيه رقم 30»، يحتمل أن يكون نيدرماير كاتبه أو كاتب أجزاء منه على الأقل، لأن معهده أشرك في التحضير للبعثة. وقد زاره قادة قبيلة الجاشكي الإيرانية، بالنظر إلى أن الركب الخاص كان مكلفا بدعم القوى المعادية لبريطانيا وراء الحدود العراقية وعلى نطاق الشرقين الأدنى والأوسط، كما كان من مهامه قطع طرق الاتصالات البريطانية، وربط الوحدات والسفن بمسرح الحرب في هذه المنطقة على حساب مسارح

عمليات أخرى. لكن هتلر كان غير راغب بعد في إسقاط الإمبراطورية البريطانية: «لن تحسم قبل نهاية عملية بربروسا مسألة ما إذا كان يجب الاستيلاء بصورة نهائية على المواقع الإنجليزية بين البحر المتوسط والخليج بالارتباط مع هجوم ضد قناة السويس».

كانت مهام «الركب الخاص ف» محدودة إذن، واعتبر أعضاء البعثة العسكرية متطوعين في خدمة العراق، وارتدوا بذات المناطق الحارة مع شارات عراقية. هذا الجهد الألماني، بالعدد المحدد من الرجال الذي قام به، كان هدفه القريب تعزيز إرادة المقاومة لدى القيادة العراقية، ولدى جيش وشعب العراق.

غير أن العراق انهار بسرعة سياسيا وعسكريا، ففي يوم 13 آذار من عام 1941 اجتازت قافلة عسكرية بريطانية قوامها ألفا رجل حدود الأردن في اتجاه إلى بغداد، وفي نهاية أيار فر الكيلاني والمفتي من العاصمة العراقية إلى طهران ثم برلين. وفي 31 أيار وقع ساسة عراقيون اتفاقية هدنة مع البريطانيين. هكذا ضاعت منطقة الموصل الغنية بالنفط من دول المحور، وتواصلت التحضيرات البريطانية لاحتلال سوريا ولبنان، منطقتي الانتداب الفرنسيتين.

وصل فيلمي ونيدرماير مع أركانهما يوم 28 أيار 1941 إلى أثينا، وفي الثلاثين من الشهر طارا فوق بحر إيجه إلى رودوس، ليصل يوم 1 حزيران إلى حلب في سوريا، حيث وجد «الركب الخاص» في انتظاره توجيها يأمر: «بجمع سائر القوى الألمانية في حلب وبالبقاء هناك في حالة ترقب وانسحاب كامل من الحياة العامة»، ثم جاء بعد يومين أمر بعودته دون إبطاء إلى أثينا.

في الثامن حزيران عام 1941، هاجم البريطانيون جيش الشرق بقيادة الجنرال دانتس. يخبرنا رئيس أركان ركب فيلمي، الرائد في شعبة الاستخبارات ماير ريكس، يوم 4 تموز 1941 من بيروت عن المعارك العنيفة

التي دارت بين الفرنسيين والبريطانيين. كان الرائد قد عاد يوم 22 حزيران بالطائرة من أثينا إلى حلب، واستطاع أن يحصل على انطباع مباشر. أنهك الفرنسيون وشعروا بالضعف بعد حوالي شهر من القتال العنيف، لم تصلهم خلاله أية قوات جديدة، خسروا فيه 4500 رجل، لكنهم أسروا بدورهم 1400 بريطاني. في هذا الوضع، أثبت التعاون الفرنسي / الألماني جدارته. يخبرنا ماير ـ ريكس أنه: «بعد أيام قليلة ساد تعاون وثيق، مفعم بالثقة ورفاقي، وكان لدي انطباع بأن الفرنسيين يلعبون بأوراق مفتوحة معي، وأسهم في هذا التحسن السريع في وضع الوقود واستجابتنا لطلب فرنسي بإخلاء سبيل بعض أسرى الحرب من الضباط الفرنسيين»[2]. قبل دانتس شروط الهدنة البريطانية، وكان الفرنسيون قد خسروا قرابة 9000 قتيل وجريح.

برد فعلهم السريع على انقلاب العراق وعملهم الحازم ضد المواقع الفرنسية في سوريا، ثبت البريطانيون مواقعهم في الشرق الأدنى ووطدوها. لم يعرف الرأي العام الألماني أي شيء تقريبا عن هذه التطورات، لأن عملية الإنزال الجوي في كريت، الناجحة والجسيمة الخسائر، صرفت أنظارهم عنها، وجعلت القيادة الألمانية تفوت على نفسها فرصة جيوستراتيجية فريدة لم تتكرر إطلاقا. نزفت وحدات المظليين الألمان دماءها في كريت، التي كان بوسعها زعزعة المواقع البريطانية في الشرق الأدنى والأوسَط وربما حتى في فارس، بالتعاون مع الفرنسيين في سوريا والقوى الوطنية في العراق.

قال ونستون تشرشل بطريقة صاحية وصائبة، وهو يلقي نظرة على ما جرى: «من المؤكد أن هتلر أضاع فرصة الحصول على كسب كبير بثمن

2. تقرير ماير ـ ريكس، الواقع في ثماني صفحات بتاريخ 4 تموز 1941 عن الوضع في سوريا والمعارك البريطانية الفرنسية في الأرشيف القومي (رقم ت 77/ 1432).

بخس في الشرق الأوسط». وكان السياسي البريطاني قد تصرف بحزم، ورغم إخلاء كريت فقد جعل الوضع في شرق البحر المتوسط يستقر، وضمن الشرق الأدنى: «لقد نجحنا بقوى قليلة في وقاية أنفسنا من ضرر كبير أو دائم، رغم أننا كنا مجهدين إلى أقصى حد»[3]. كان نيدرماير سيهز رأسه موافقا على أقوال تشرشل، وكذلك منافسه القديم فون هانتيج، الذي حاول منذ خريف عام 1940 بالتعاون مع ماكس فون أوبنهايم وفرانز فون بابن زعزعة المواقع البريطانية في العراق وسوريا. ومع ذلك كان يبدو أن طرق الرجلين المتنازعين لم تتقاطع في النصف الأول من عام 1941[4].

رأس سونيون

يبرز رأس سونيون في بحر إيجه كإصبع يشير إلى الجنوب الشرقي، يقع على بعد حوالي ساعة سفر بالسيارة عن أثينا. لم يكن دوي المدافع يسمع هنا في صيف عام 1941، وكان معبد أبولو ينتصب مشعا فوق البحر الأزرق. عندئذ كان يرتسم في الليالي المقمرة المضيئة شريط فضي على البحر الساكن تقريبا، بينما كان تنبح من بعيد وراء الشاطئ الكلاب البرية. منذ دخلت الجيوش الألمانية يوم 24 حزيران روسيا البيضاء وأوكرانيا، أمضى نيدرماير مع «الركب الخاص ف» الصيف على أرض كلاسيكية.

بقي الوضع السياسي / الاستراتيجي مفتوحا في الشرق، رغم التراجع في العراق والعمليات البريطانية الناجحة في سوريا. وبدا أن نجاح المحور في شمال أفريقيا سيعزز موقعه المستقبلي في المتوسط الشرقي، لذلك أمرت قيادة القوات المسلحة العليا الجهات الوظيفية المدنية والعسكرية، التي كان قد تم سحبها من العراق وسوريا، أن تبقى متجمعة من أجل تدخل لاحق.

3. ونستون تشرشل: الحرب العالمية الثانية. لندن 1948 ـ 1954، الجزء الثالث ص 236.
4. حول دورا هانتيج في سوريا عام 1941، انظر: سيرة فون بابن الذاتية. نيويورك 1941، ص 332 ـ 345.

وكان على «ركب فيلمي الخاص» أن يبقى مرابطا في موقع ملائم من المتوسط الشرقي.

في 11 حزيران 1941، وصل «توجيه الفوهرر رقم 32 ـ الإعداد للفترة التالية لبربروسا»، الذي جعل «الركب الخاص ف» موقعا خارجيا مركزيا لجميع الخطط والتدابير في المنطقة العربية، على أن يلتحق به، بناء على أمر هتلر، خيرة العارفين والعملاء، ويوضع تحت إمرة رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة مباشرة، الذي سيتوافق على قضايا السياسة الخارجية مع وزير خارجية الرايش.

بسبب تقدير ذاتي مفرط وأعمى، انطلق توجيه الفوهرر قم 32 من حتمية هزيمة الاتحاد السوفييتي العسكرية، ومن سيطرة ألمانية إيطالية مطلقة على البر الأوروبي. لذلك كان يجب تأجيج مراجل الاضطراب وحركات الانتفاض في الشرق، على أن ينسق «الركب الخاص» جميع التدابير العسكرية والسياسية والدعائية الضرورية لتحقيق هذا الهدف.

بدأ نيدرماير يشكل في تموز من عام 1941 على رأس سونيون مجموعة تدريبية صغيرة للعرب. وكان عملاء «الركب» قد سربوا قوميين عربا من سوريا إلى تركيا بجوازات سفر ألمانية، لكنهم لم ينجحوا أول الأمر في إحضارهم من تركيا إلى اليونان. مع ذلك، سارع طلاب عرب في ألمانيا إلى التطوع للقتال، عندما انفجرت الانتفاضة في العراق، وبعد أن اجتازوا تدريبا استمر أربعة أسابيع في دورن قرب آخن، كوّنوا في النهاية نواة شعبة التعليم الألمانية العربية. كان البحر يحد معسكر التدريب، الواقع في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، الذي كان من السهل عزله عن شماله، بينما توفرت تدريب مثالية على مقربة مباشرة من المعسكر في مناخ شبه الجزيرة الغنية مثل المداري. وقدمت منازل نهاية الأسبوع، التي تملكها البرجوازية الأثينية، أماكن نوم ثابتة للمتطوعين، نصبت خيام إلى جانبها.

تبين أن تدريب الطلبة العرب صعبا، نتيجة انقسامهم إلى تيارات سياسية مختلفة، في حين طرح المتطوعون مطالب سياسية خاصة بهم. كان فيلمي، المقيم في أثينا، يزور المعسكر بين فينة وأخرى، وهو يتذكر بروح ناقدة: «إن المحادثات التي كان يخوضها الضباط مع الطلبة على أرضية ودية بعد نهاية الخدمة ـ وتركزت أساسا على طموحات العرب نحو الحرية ـ جعلت المتطوعين يتصورون أنهم صاروا شركاء أندادا في الحقوق. لذلك لم يقتنع بعضهم بأهمية التدريب العسكري القاسي، واعتقدوا ـ بمزاجهم العربي المألوف ـ أن المتطلبات التي تصاحب الخدمة العسكرية ليست ضرورية»[5]. لكن الوضع تحسن في آب، الذي أقسم المتطوعون في الرابع والعشرين منه يمين الولاء «لوطن عربي حر».

تفاقمت حدة الوضع في فارس في آب من عام 1941، بعد جعل هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتي من موسكو ولندن حليفتين. وفي تموز اتفقت الحكومتان البريطانية والسوفييتية على الوصول إلى نفط فارس. يذكر الاتفاق بين لندن وموسكو بالاتفاق الأنجلو روسي عام 1907 من أجل إقامة ارتباط بري بين الاتحاد السوفييتي والخليج، وطرد الألمان الكثيرين من إيران. وفي 17 آب 1941 عرضت الحكومتان البريطانية والسوفييتية مطالبهما في مذكرة مشتركة قدمتاها إلى حكومة الشاه رضا بهلوي في طهران.

في اليوم التالي، الثامن عشر من آب، أيدت قيادة القوات المسلحة العليا الطلب الذي قدمه «الركب الخاص ف» إلى وزارة الخارجية، بوضع تأشيرة إلى إيران في جواز السفر الرسمي الخاص بالسيد «أوتو نورمان»[6]. وبعد يوم آخر، أخبر جروبا دائرته أن السيد نورمان ليس أحدا آخر غير

5. هيلموت فيلمي: الاستخدام الألماني لحركة العرب الأصليين، ص 56.
6. هاينس تيلمان: سياسة العمل، ص 310.

أوسكار نيدرماير، الذي يزمع السفر إلى فارس «من أجل القيام باستطلاعات عسكرية معينة»، حسب جروبا، الذي كان يعمل هو نفسه تحت اسم حركي هو «فرانز إيركه» أو «جيركه»، كانت استطلاعات نيدرماير مكرسة « للقيام بعمل عسكري محتمل في المنطقة العربية ذي أهمية كبرى. ويتعلق الأمر خاصة بالتأكد من ظروف بعض الطرق».

لكن سكرتير الدولة ريتشارد فون فايتزيكر كان لديه تحفظات على إرسال نيدرماير، ولفت الأنظار إلى حياد فارس، الذي اتضح أنه كان قصير العمر، ذلك أن قوات سوفييتية وبريطانية توغلت بعد ستة أيام، في 25 آب 1941، في إيران، وحطمت بسرعة مقاومة الوحدات الفارسية الضعيفة، واحتلت البلاد. وقد سوغ تشرشل انتهاك حياد إيران واحتلال دولة سيدة المجافي للقانون الدولي بالقاعدة الدولية التي تقول «يصمت القانون بين المتحاربين». في اليوم التالي، أعادت الخارجية سفر السفير الرسمي الخاص بأوتو نورمان إلى قيادة القوات المسلحة العليا، لأنه لم تعد هناك حاجة إليه.

سافر جروبا بعد ذلك بفترة قصيرة إلى اليونان، وأقام في الفترة ما بين 29 آب و 1 أيلول 1941 في معسكر «الركب الخاص» في رأس سونيون، حيث كان 27 عربيا يتدربون عسكريا، وكان مقدرا أن يرتفع عددهم إلى مائتين. كان هؤلاء يرتدون بذات عسكرية ألمانية، ويتلقون تدريباتهم على يد ضابط ألماني يتقن اللغة العربية. اعتبر جروبا أعمالهم العسكرية مرضية، وجيدة جدا في حالات متفرقة، كما كانت قدرتهم على الرمي جيدة، وكذلك كان وضعهم الصحي وطعامهم ومزاجهم. كان الضباط الألمان يتلقون دروسا في العربية والعرب يتعلمون الألمانية، وإن كان بعض الضباط الألمان قد انتهكوا من حين لآخر قاعدة رئيسة تقول بمعاملة العرب كرفاق أنداد وشركاء مستقبليين في النضال. لذلك أمضى جروبا الليلة الأخيرة من زيارته وهو يفسر في نادي الضباط سلوك المتطوعين العرب، الذي بدا غريبا بعض الأحيان.

كان سبب رحلة جروبا الرئيس هو الاطلاع على تقارير وأنباء العملاء، الذي كان نيدرماير مسؤولا عن الحصول عليها وتقويمها. أكد جروبا أن صورة الوضع التي جمعها نيدرماير تتفق من حيث الجوهر مع الصورة التي لدى وزارة الخارجية. أما الجديد فيها، فكان خبر عن منظمة سرية شكلها الضباط العراقيون، خططت للقيام بأعمال تخريبية ضد المرافق العسكرية البريطانية. وكانت جديدة فضلا عن ذلك الإشارات إلى العدد المتعاظم من الضباط والجنود الإنجليز في تركيا، الذين كانوا يعملون هناك بصفة تقنيين ومستشارين. تحدث جروبا بإسهاب مع نيدرماير حول شبكة عملاء الركب الخاص، وتبادل معه التجارب والخبرات حول سمات شخصية وقيمة العملاء المستخدمين ورجال الارتباط. وفي الختام، سجل جروبا أنه حذر نيدرماير «من أناس مشكوك في أمرهم».

لم تكن وزارة الخارجية وشعبة المكافحة راضيتين عن شبكة العملاء التي بناها ووجهها نيدرماير. بعد أسابيع من عودة جروبا إلى برلين، توصلت القوات المسلحة والخارجية والشعبة إلى ما يلي: «بما أنه تبين أن احتفاظ الركب الخاص بشبكة عملاء واستخبارات خاصة به ليس أمرا ملائما، فقد تم التوصل إلى اتفاق بين القيادة العليا للقوات المسلحة والجنرال فيلمي يعفي الركب من هذه المهمة. وسيناط الحصول على المعلومات حول الشرق الأدنى في المستقبل بشعبة مكافحة التجسس الخارجية ووزارة الخارجية، على أن يتم إبلاغ الركب الخاص بها». في هذه اللحظة، كان نيدرماير قد غادر رأس سونيون: «بما أن مهمة العقيد نيدرماير الخاصة لدى الركب الخاص تنتهي بهذا القرار، فقد ترك الركب في الفترة المنصرمة، ووضع تحت تصرف القيادة العليا للقوات المسلحة».

لا نعرف بأية مشاعر وانطباعات وخطط عاد نيدرماير إلى برلين. إلا أنه فهم دون شك أن الرايش الألماني أضاع فرصة إيصال بريطانيا العظمى إلى حافة الهزيمة، من خلال عمل حازم في الشرق. كانت ألمانيا تسيطر مطلع

عام 1941 على أوروبا. وكان قد تم احتلال يوغسلافيا واليونان في حملتين عسكريتين قصيرتين، في حين حافظت السويد وسويسرا على حيادهما، وكانت إيطاليا الفاشية مرتبطة بألمانيا، التي تتعاون معها فرنسا فيشي، بينما دعمت إسبانيا فرانكو والبرتغال ورومانيا وبلغاريا والمجر وسلوفاكيا وفنلندا جهود ألمانيا الحربية.

ماذا كان سيحدث، لو قدمت القوات المسلحة الألمانية دعما أكثر تصميما لانتفاضة العراق، وتعاونت مع إدارة الانتداب الفرنسي في سوريا من أجل إرسال وحدات قوية إلى بغداد، وعدم الاكتفاء بمساندتها من خلال عدد قليل من الطائرات؟. إن أحدا ما كان سيسارع إلى مساعدة لندن، للدفاع عن الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية. لكن السؤال الذي طرحناه ليس تاريخيا. ومع أنه يشير إلى خيارات، فلا بد من تجاهله لصالح التأكيد على الوقائع، التي تقول إحداها إن العون الألماني المتردد للعراق انتهى بسرعة في نهاية أيار / مطلع حزيران من عام 1941، وإن رد فعل ألمانيا على انقلاب بغداد كان بطيئا جدا، ذلك أن راية الحرب الألمانية كانت ترفرف منذ 27 نيسان 1941 على الأكروبوليس، فكان ممكنا القيام بعمل يتجاوز بحر إيجه، رغم أنه جرى يوم 6 أيار نقاش في قيادة القوات المسلحة العليا حول وضع الشرق، بعد نداءات العون التي وجهتها الحكومة العراقية.

استهان المخططون الألمان على الصعيد الميداني بعاملي الوقت والمسافات وأثرهما في القيام بعمليات في الشرق. في الوقت نفسه، ظهر مرة أخرى الشجار البرليني العقيم والمعطل داخل وبين دوائر الرايش الأكثر أهمية. بعد نهاية الحرب، علق رئيس أركان الحرب السابق فرانس هالدر بطريقة تضح بالنقد الذاتي على دراسة قدمت إلى القوة الأميركية المنتصرة بالقول[7]: «للخبرات والدروس طبيعة سلبية في الغالب. وهي تبين في مثال

7. فرانس هالدر: الاستخدام الألماني لحركة العرب الأصليين. ص 12.

ألمانيا كيف لا يجوز للمرء أن يتصرف. إن محاولات دعم حركات العرب الأصليين ضد إنجلترا كانت تفتقر إلى أرضية صلبة على الجانب الألماني». ثم يضيف الجنرال: «ربما أسهمت الشكوك الداخلية في فرص نجاح الارتجالات العسكرية الألمانية ضمن المجال العربي في عدم الفاعلية الغريبة على صعيد القيادة الألمانية الأعلى. ومن المؤكد على كل حال أنه حدث تلازم بين أفعال متفرقة قامت بها جهات الاختصاص المختلفة، ولم يكن هناك مخطط موحد جيد التمحيص لاستغلال حركات العرب الأصليين. لذلك حملت المحاولات العسكرية طابع أنصاف تدابير وإجراءات ناقصة».

تجاهل هالدر السبب الرئيس في «عدم الفاعلية الغريبة على صعيد القيادة الألمانية الأعلى»، وهو أن «جميع الخطط السياسية والعسكرية حول الشرق اعتبرت تالية في أهميتها بالمقارنة مع الاستعدادات لـ«مشروع بربروسا». لم يفكر هتلر بالسير على خطى المحاربين الألمان العظام وقيادة الجيش الألماني إلى الشرق، لأن عماه الأيديولوجي العرقي دفعه إلى احتلال «مجالات حيوية» في الأبعاد الروسية التي لا نهاية لها، ولأن نهاية الإمبراطورية البريطانية لم تكن هدفه، بل احتلال روسيا، واضطهاد شعوب أوروبا السلافية وإبادة اليهود. وهكذا، فإن من يجري تأملات حول فرص أضاعها الرايش الألماني في الشرق الأدنى عام 1941، يتجاهل القوة الدافعة للسياسة الألمانية ويستهين بها، ألا وهي هتلر، الذي لم يكن يفكر في تلك اللحظة بخيارات استراتيجية، بل أراد أن يلاحق حتى النهاية بتصميم لا يلين هدفه المحدد أيديولوجيا منذ وقت طويل، أعني حرب الاحتلال والإبادة في شرق أوروبا.

حرب شتاء 1941/ 1942

عاد نيدرماير إلى برلين، بعد انفصاله عن ركب فيلمي الخاص. وعندما بقي الهجوم الألماني نحو موسكو عالقا في الوحل الروسي عند نهاية تشرين

الثاني من عام 1941، بدأت ترتسم علامات «الإخفاق الكارثي» لمشروع بربروسا». ماذا كتب نيدرماير قبل عامين، في شتاء 1939/ 1940؟. «يقف رجل مفكر من أيامنا وحيدا ومنعزلا بين المتفرجين على مسرحية شتوية، محاولا ربط طيران الأفكار الشاعري مع الواقع القاسي، وأمام عين فكره صورة سيارة غارقة في وحل السهوب: إنه سياسي شؤون عسكرية»[8]. الآن صار كابوس نيدرماير حقيقة.

أوصل الهجوم المعاكس السوفييتي يوم 5/ 6 كانون الأول 1941 الجيش الألماني إلى حافة الهزيمة أمام موسكو، وكانت الخسائر الألمانية على الجبهة الشرقية مهلكة. وكان تصور الألمان عن الحرب الخاطفة قد فشل في سهوب روسيا المترامية الأطراف، عندما أكدت ألمانيا يوم 11 كانون الأول 1941 حالة الحرب مع الولايات المتحدة الأميركية، بعد أيام قليلة من الهجوم الياباني المباغت على بيرل هاربور. الآن، كان الرايش الألماني يواجه تحالفا لا قبل له بمواجهة قدراته الحربية في المدى الطويل.

يوجد ثمة في تركة نيدرماير مخطوطة مطبوعة على الآلة الكاتبة قالت يوم 30 تشرين الثاني عام 1940، قبل عام من كارثة الشتاء أمام موسكو، إن أي هجوم ألماني على روسيا السوفييتية يعد عملا من أعمال الجنون. هذه المخطوطة هي نص محاضرة ليس من الواضح إن كان نيدرماير قد ألقاها. مع ذلك، نستشف من شروحها ما كان يدور في عقل كاتبها خلال حرب شتاء 1941/ 1942[9]، فقد حذر بوضوح رؤية من أن: «الحرب علّمت شعوب القارة الأوروبية مرارا وتكرارا معنى أن يتجاوز المرء قواه العسكرية الخاصة ويتوغل في أراضي أجنبية. لقد عرف نابليون هذا في موسكو،

8. أوسكار نيدرماير: الجغرافيا العسكرية مطبقة على مثال روسيا السوفييتية، مرجع سابق، ص 29.

9. يوجد المخطوط في أرشيف الحرب في ميونيخ تحت رقم 2510.

وعرفه الألمان زمن الحرب العالمية في روسيا والشرق الأدنى، والروس في بورت أرثور وأمام وارسو. هنا يوجد ثمة حدود لا يستطيع المرء تخطيها دون عقاب».

كان نيدرماير يتحدث انطلاقا من تجربة خاصة: «هذا ما يعرفه قبل كل شيء رجل قاده، مثلي أنا، مشروع ألماني للحرب العالمية هو الأبعد مدى والأكثر مغامرة، فوصل به إلى حدود الهند وجعله يشارك في القتال ضد العرب على الخط الحديدي الحجازي. وهذا ما لم يتغير في ظل الحرب الجوية ووحدات الإنزال الجوي». ثم يضيف: «على الجندي بالذات رفع صوته هنا محذرا، وعليه كذلك تحطيم أحلام الرغبة السياسية، إذا كان أمن صلات خلفية دائمة ليس مضمونا. إن ألمانيا التي تحرس حدود إسبانيا والقطب الشمالي ليست مجنونة إلى درجة التقدم حتى لينينجراد والقوقاز». عندما كان نيدرماير يكتب هذه الجمل على الورق، كان هتلر قد أصدر الأمر بالإعداد لـ«عميلة بربروسا».

كان الفشل الألماني أمام موسكو والهجوم بالقنابل على بيرل هاربور، الذي وقع في الوقت ذاته، يعنيان نقطة انعطاف في الحرب العالمية الثانية. في تلك الأيام كان نيدرماير يضع دراسة صغيرة عن «الجغرافيا العسكرية» هي بين الأفضل من مؤلفاته. وقد صرح واحد من أكثر نقاده حدة بعد 46 عاما من صدور الكتاب عام 1942 في برلين قائلا: «يبقى التأكيد على أن نيدرماير قدم، باعتباره أكثر جغرافيي زمنه العسكريين أهمية، نقدا أساسيا للتفسيرات الخاطئة، التي تجعل من الجغرافيا شيئا مقررا، والتي وجدها بالقدر نفسه في السياسة الجغرافية والجغرافيا السياسية»[10]. إن حداثة نيدرماير المذهلة استوعبت مسبقا «المنطلق غير الواحدي للعلوم السياسية الحديثة».

10. أوسكار نيدرماير: الجغرافيا العسكرية، برلين 1942. وكذلك كلاوس كوست: تأثير الجغرافيا السياسية على بحث ونظرية السياسة الجغرافية من بداياتها إلى 1945. بون 1988، ص 331.

اعتبر نيدرماير تحذيره من الحرب الهجومية ضد الاتحاد السوفييتي مبررا: «من حق الجغرافي التحذير، إذا قادت المبالغة في أفعال البشر الإرادية إلى الاستهانة بالمعطيات الأرضية المكانية، وإلى تجاهل علاقات المكان والزمان والقوة البشرية». وتنصل الكاتب، دون ذكر أسماء، من جغرافيا هاوسهوفر السياسية، لأنها «تعطي الأولوية للتأثيرات الجغرافية الواحدية الطابع، وتحاول البرهنة على وجود قوانين مكانية خاصة».

تبين مقارنة بين جغرافيا نيدرماير العسكرية وسياسته العسكرية المنشورة عام 1939 وبين جغرافيا هاوسهوفر السياسية العسكرية فروقا نوعية جلية في البنية واللغة والأسلوب. على عكس «السياسة العسكرية» المنشور عام 1939، يخلو كتاب نيدرماير «الجغرافيا العسكرية» خلوا تاما تقريبا من الجمل الأيديولوجية والإحالات إلى القيادة النازية، ويشهد على سعي مؤلفه إلى الموضوعية الصارمة.

لم تكن «الجغرافيا العسكرية» بالنسبة إلى نيدرماير غير علم موجه نحو قيادة الحرب، وتفادي الصراعات والسيطرة عليها، لذلك وجد أنها تتطلب دراسة متعددة الاختصاصات تخترق حقولا علمية عديدة، وتأهيلا عسكريا وفكرا سياسيا. أما مهمة «الجغرافيا السياسية» الأولى فهي تحليل عنصر المكان سياسيا، وإدراجه في الوقت ذاته ضمن تقويم شامل، وجعله مفيدا في التوصيات الخاصة بالأعمال الميدانية، فليس للهواة السياسيين من مكان في هذا الاختصاص العلمي: «على من يريد إقناع نفسه بحقيقة هذه المتطلبات أن يقرأ أدبيات العقود الأخيرة الجغرافيا / العسكرية والجغرافيا السياسية، ويقارن الأحكام والنبوءات المعبر عنها فيها مع الأحداث السياسية العسكرية والدفاعية».

لم يكن اهتمام نيدرماير منصبا على صياغة نظرية جغرافية عسكرية ملزمة، أو على نظرية عقائدية للسياسة، أو على بناء نظري مغلق، بل أراد

أن ينقل إلى تلامذته وقرائه نهجا في التفكير ومعارف ومفاهيم ترتبط مع كلاوزيفيتز وتستند على كارل شميت، تمكنهم من فهم ديناميكية العنف، وأشكال الظهور المتغيرة للحرب الحديثة، بما أن الحرب الحديثة لم تعد تعرف وضعا دائما أو نقاطا ثابتة: «إن الثابت الوحيد هو التغير الدائم في حياة الشعوب السياسية». وقد بدت الجغرافيا العسكرية ملائمة بصورة خاصة لجمع البيئة السياسية / الاستراتيجية الدائمة التغير في «تأليف ديناميكي» و«صورة منسجمة عن المكان».

بدَّل مفهوم الحروب التقليدي، الذي يفهم الحرب عموما كـ«حرب أسلحة»، قال نيدرماير، بالارتباط مع كلاوزيفيتز وراتسنهوفر، بـ«مفهوم موسع للحرب»، حوَّلته المناقشة السياسية الأمنية، التي جرت بعد عام 1945، إلى «مفهوم موسع للأمن». ذلك أن نيدرماير كان يرى في الصراع بالأسلحة مجرد جزء وحسب من «الحرب»، التي تشمل في الواقع سائر التدابير الممهدة أو المعوقة في السلم، ومجمل استخدام القوى الاجتماعية في القتال.

تبقى الحرب التصعيد الأعلى لـ«عسكرة»، لأن الصراع المسلح هو نقطة تتمحور حولها وتتركز فيها جميع الجهود السياسية العسكرية. يصف نيدرماير بدقة انتقال نقاط الثقل من حرب السلاح القاري إلى الحرب الاقتصادية الكونية ذات الطابع والنمط الأنجلوساكسوني. ويرى إن الدول أو جماعات الدول التي تريد العمل ضد استراتيجية أميركا وبريطانيا الكونية النطاق، وضد تغلغلها الاقتصادي وعقوباتها، لا تستطيع تحقيق أي شيء إلا في إطار مجالات كبرى منظمة سياسيا واقتصاديا تجاوز أية دولة قومية. ورأى نيدرماير، على طريقة زميله ومحادثه كارل شميت، في مبدأ مونرو الصورة القانونية والسياسية المثالية لهذه المجالات الكبرى. ودعا إلى تطبيقها على القارات الأخرى: «نحن نفهم هذا المجال الكبير كمجال يتجاوز أرض الشعب ومنطقة الدولة، ومجال نفوذ من نمط ثقافي واقتصادي، ومنطقة لا

تخضع لتدخلات قوى غريبة عنها، يحرسها سياسيا شعب قائد، لديه قدرات اقتصادية وعسكرية واسعة تتيح له الاكتفاء الذاتي والدفاع عن النفس».

حلل نيدرماير على خلفية هذه الأفكار نزعة هتلر السياسية المغامرة[11]. وبدأ حسابه بحذر: «تتجلى عبقرية رجل الدولة في معرفة ما هو ممكن مكانيا (مجاليا)». ثم أضاف: «تعيش أوروبا اليوم كارثة مجالية هائلة» إن تزاحم دول أوروبا يمكن، في حال فهم بنظرة آسيوية، أن يغري بوضع مخططات ذات طموحات خطيرة (راتسيل). ووصل أخيرا إلى أقصى حدود النقد: «يمتلك رجال الحرب والدولة العظام نظره عظيمة غالبا ما تسبق الزمن حول المجال والسيطرة عليه من خلال طرق المواصلات. هؤلاء هم الإسكندر، يوليوس قيصر، شارل الكبير، نابليون، هتلر».

يشير تتابع الأسماء إلى الكوارث / فمملكة الاسكندر انهارت فور وفاته، وقتل قيصر على يد نخبة الإمبراطورية الرومانية بعد حملته في آسيا مباشرة. وشارل الكبير يمكن أن يكون ملك الفرنكيين أو كارل الثامن ملك السويديين، الذي نزلت به هزيمة ساحقة قرب بولتافا في أوكرانيا على يد بطرس الأكبر. وذكر نابليون عام 1942 أفصح عن الخيط الذي يربطه بهتلر. تبع نيدرماير في تعداده شبنجلر، الذي قال في مدخل كتابه «اندثار الغرب» إن المقارنات أداة ملائمة لـ«فهم الأشكال الحية»[12]. «لم يتعامل المرء يوما مع بروز نابليون دون إلقاء نظرة جانبية على قيصر والإسكندر». عرف شبنجلر أيضا: «لقد كان قدر شارل الثاني عشر السويدي المحتوم أنه حمل منذ شبابه كتاب «حياة الاسكندر» في حقيبته وأراد تقليده».

عرض نيدرماير سياسة هتلر التوسعية، والأيديولوجية الاشتراكية القومية العرقية باعتبارهما غير صحيحتين علميا. ونبه القارئ إلى: «أن أرقى

11. أوسكار نيدرماير: الجغرافيا لعسكرية، ص 39.
12. أوسفالد شبنجلر: اندثار الغرب، جزءان، 1919 ـ 1922، الجزء الأول، ص 4.

الإنجازات ضمن أسرة الشعوب الجرمانية لا توجد في مناطق اسكندنافيا الشمالية النقية عرقيا إلى حد بعيد، بل توجد هناك بالذات، حيث حدث اختلاط، واخترقت منطقة الشعب الألماني المناطق المختلطة العريضة، التي تقع بين العرق الشمالي ومكونات الأعراق الأخرى»[13]. رغم هذا التنصل من سياسة هتلر، واصل نيدرماير وضع خبراته ومعارفه دون قيود في خدمة الحرب الألمانية.

دراسات حول الحرب

رغم الإخفاق أمام موسكو، كان ثمة على الأقل أمل في أن يتم الاستيلاء عامي 1942 / 1943 على مجال كبير عصي على الحصار يسمح بخوض حرب طويلة الأمد ضد الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى. لذلك رأت الخطط الألمانية القيام عام 1942 بحركات تطويق كبرى تنطلق من جنوب روسيا عبر القوقاز ومن شمال أفريقيا عبر مصر، وتتقدم في الشرقين الأدنى والأوسط. أنهى نيدرماير يوم 17 كانون الثاني عام 1942 دراسة عن «استخدام وحدات خاصة في إيران» تحمي الجناح الشرقي للقوات المتقدمة نحو بلاد ما بين النهرين[14].

وصف نيدرماير تنظيم واستخدام وحدات مختارة تعمل انطلاقا من بروسيا الشرقية في اتجاه أفغانستان والهند، ويمكن أن تستخدم أيضا جنوب شرق روسيا، في آسيا الوسطى، والجزيرة العربية وشمال أفريقيا، حيث تسود ظروف جغرافية ومناخية متشابهة. ونصح نيدرماير بإلحاح «بالأخذ بتفكير استباقي طويل الأمد حول الأعمال العسكرية في الشرق، وبالقيام بتحضيرات متقنة، لأن العدو يتمتع هناك بأرجحية كبرى». ومن الجلي أنه

13. أوسكار نيدرماير: الجغرافيا العسكرية، ص 89.

14. انظر: استخدام وحدات خاصة في إيران. برلين 17 كانون الثاني 1942، الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري، رقم 122/ 8.

كان يفكر بأن تسند إليه لاحقا قيادة الوحدات التي صممها.

ليس هناك حتى اليوم دراسة أفضل من دراسة نيدرماير حول استخدام وحدات خاصة في المناطق الصحراوية، التي حافظت على أهميتها الكبرى رغم تغير الظروف السياسية والاستراتيجية، كما تؤكد ذلك عمليات الوحدات الخاصة الأميركية في أفغانستان منذ تشرين الأول عام 2001. وقد أشار نيدرماير نفسه في مقدمته إلى أن الأمر لا يتعلق هنا بخطة عملياتية لسيناريو معين: «ليس لفرضياتنا حول وضع ما أية علاقة باقتراح عمليات، بل هي تحدد هدفنا وتقدم لنا نقاط توجيه للأفكار التكتيكية التالية».

في الوقت نفسه، تنضوي دراسة نيدرماير على أكمل وجه في التخطيط الاستراتيجي الإجمالي للقيادة الألمانية في عام 1942، فقد انطلق من أن هجوم الصيف المقرر عام 1942 سيضع القوقاز تحت رقابة ألمانيا: «عند خوض الحرب في الشرق الأدنى، يجب أن يكون إمدادنا، وخاصة من الوقود، مضمونا كإمداد الإنجليز. وهذا يشترط احتلال القوقاز». ثم نظر من ذرى البورز والقصبيك نحو الجنوب: «لقد احتللنا مجمل منطقة القوقاز حتى الحدود الإيرانية تقريبا، ونفكر الآن بالتقدم إلى إيران».

انطلق نيدرماير من أن تركيا ستبقى محايدة حتى بعد احتلال القوقاز. إنها ستتخذ موقف المراقب، كي لا ينتهك أحد مناطقها. بالمقابل، فإن السيطرة البحرية الألمانية على البحر الأسود ستكون، شأنها في عام 1918، ضرورية لعمليات بحرية أخرى. لكنه سيكون هناك على كل حال مصاعب في الإمداد، لأن خط السكة الحديدية إلى باكو يفتقر إلى درجة مقبولة من الكفاءة، الأمر الذي يجعلنا نضع في حسباننا أننا لن نحصل أول الأمر على إمدادات وقود كافية من مناطق النفط القوقازية المحتلة.

أما بالنسبة إلى العمليات المستقبلية وراء القوقاز، فقد رسم نيدرماير خطا يمر بمحاذاة إيران، يقود من النهاية الشمالية للخليج إلى الزاوية الجنوبية

الشرقية لبحر قزوين، على أن يكون القسم الغربي الأصغر، الذي تخترقه الجبال، مسرح العمليات العسكرية الحقيقية ضد البريطانيين. وتتم في منطقة العمليات الشرقية، التي تخترقها الصحارى، عمليات صغيرة وحسب، الهدف منها حماية مجنبة قوات منطقة العمليات الرئيسة، وعزل وتعطيل طرق اقتراب وتموين العدو. هنا، يجب أن تكون منطقة استخدم وحدات نيدرماير الخاصة المتحركة.

كان نيدرماير يرى أن على الوحدات الخاصة قطع مسافات كبيرة في أقصر وقت، وأن تكون أسلحتها فاعلة على مسافات كبيرة، وأن تكون في وضع يمكنها من كسر أية مقاومة محلية، سواء تمركزت هذه في الصحراء أم في الجبال. وكان عليها أن تقوم من الهضبة الإيرانية بعمليات نحو الغرب، في اتجاه شيراز، وأن تتقدم من هناك نحو بوشهر على الخليج. وقد حدد نيدرماير منطقة عمليات الوحدات الخاصة على خرائط مثلما حدد «الخطوط الاستراتيجية الرئيسة» في إيران.

بعد نهاية «الجغرافيا العسكرية» ودراسته حول الوحدات الخاصة، أعد نيدرماير نفسه للقيام بأعمال حربية، فانضم في نيسان 1942 إلى دورة تعليمية تكتيكية نظمتها مدرسة قوات المدرعات في فونسدورف. كانت القوات المدرعة الألمانية قد اجتازت شتاء قاسيا، وكان مقررا أن تشن هجوما جديدا كبيرا في القطاع الجنوبي من الجبهة الشرقية، بعد جفاف وحل مطلع العام، على أن يصل تقدمها عبر سهوب جنوب روسيا إلى الفولغا، وكذلك إلى ما وراء القوقاز.

درس نيدرماير مستندات الدورة التعليمية بعناية وإمعان[15]، وخص باهتمامه دراسة حول «عربات الاتحاد السوفييتي المدرعة»، وجد فيها

15. انظر: المستندات وملاحظات نيدرماير في الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف الحربي، رقم 122 / 2.

تلميحات إلى إسهام ألمانيا في تسليح الاتحاد السوفييتي وبناء سلاحه المدرع: «حصلت روسيا قرابة عام 1923 على تراخيص أجنبية وبدأت على الفور بناء عرباتها المدرعة بأعداد كبيرة». وأكدت النظرة التقنية العسكرية التاريخية القصيرة بصورة خاصة على الإسهام الذي قدمته شركة BMV عند بناء سلاح المدرعات السوفييتي. إن العربات الثقيلة (من طراز ت 28 وت 32) تظهر تأثيرا ألمانيا قويا. بهذه الطريقة، تطور سلاح المدرعات بسرعة كبيرة». وضع نيدرماير خطوطا تنم عن موافقته تحت التقويمات، التي اتفقت وتحذيراته السابقة: «إذا ما راقب المرء الوحدات الحديثة في سلاح المدرعات الروسي، وجب عليه التسليم بأنه نشأت في وقت قصير إلى درجة مفاجئة عربات مدرعة تلفت فاعليتها الرفيعة النظر».

الآن، قبل هجوم عام 1942 الصيفي، يقولون الحقيقة لضباط القوات المسلحة: «لقد استهنا بروح الروس القتالية، وبقدرتهم على التنظيم والتكيف». هذه الجمل كانت، بعد خسائر شتاء عام 1941 / 1942 الفادحة، ضربا من النقد لقيادة الرايش السياسية والعسكرية. كانت إدارة مدرسة المدرعات تعي طابع نصها الانفجاري: «هذا النص مخصص للضباط وليس للصحافة. وقد تحاشى عن وعي أي تفاؤل هيّن». ومنع ذلك، لم يخلو الأمر من كلمات مشجعة: «كان الأمر عام 1942 كما هو على الدوام: ليست الآلة هي التي تقرر، بل الشاب الذي يقودها».

احتفل هتلر بعيد ميلاده الثالث والخمسين يوم 20 نيسان 1942، قبل يوم من انخراط نيدرماير في دورة فونسبرج التعليمية. كانت خريطة القوقاز تزين كعكة عيد ميلاد القائد (الفوهرر)، الذي قطع مبتسما قسما منها يضم باكو ووضعه في صحنه[16]. لقد بدا مرة أخرى أن الحرب تسير لصالح الرايش الألماني وحلفائه، خاصة بعد أن استولت اليابان في الشرق الأقصى

16. انظر فؤاد آخندوف الحرب العالمية الثانية وأذربيجان، 1995، ص 50.

على مجالات كبيرة تابعة لبريطانيا وأميركا وهولندا، تعادل مساحتها تقريبا عشرة أضعاف مساحة البلد الياباني الأم، واقتربت الجيوش اليابانية من حدود الهند الشرقية، حيث كان قوميون وديموقراطيون يطالبون بنهاية السيطرة الاستعمارية البريطانية، في حين كان الجيش الألماني يستعد لهجوم الصيف الحاسم عبر القوقاز، كي يلتقي في الشرق الأدنى مع فيلق أفريقيا الذي يتقدم من شمال أفريقيا وحلفائه الإيطاليين. لكن هجوم هتلر لم يؤد إلى احتلال باكو، ولم ينته على الفرات ودجلة، بل انتهى على الفولغا بكارثة ستالينجراد.

كتائب الشرق

غادر نيدرماير برلين يوم 8 نيسان 1942، وهو يعلم أن هجوم الصيف الكبير الوشيك سيقوده إلى القطاع الجنوبي من الجبهة الشرقية الألمانية. قبل أربعة أيام من رحيله، كتب رسالة إلى زوجة زميله ومحدثه كارل شميت، الصربية الجذابة التي كانت قد تركت له قبل بعض الوقت كتابا أرثوذكسيا مسليا أعاده إليها الآن. لم يجد نيدرماير وقتا للقراءة في الأشهر الأخيرة: «إلا أن الأحوال كانت باستمرار على درجة من الخشونة، فلم نجد دوما أي وقت للهدوء الداخلي الضروري إلا في تلك الانقطاعات، التي تمكنا خلالها من القراءة ومن صنع تصور عن عالم فكري مثالي ونبيل، سيكون من الصعب على رجل مثلي ـ فأنا في النهاية جنرال ـ العيش والراحة فيه». كان نيدرماير لا يزال عقيدا في تلك اللحظة، لكنه أعتقد كما يبدو أنه سيتلقى ترقية سريعة. مهما يكن من أمر، كانت تحية عيد الفصح التي أرسلها إلى السيدة شميت وداعا في الوقت نفسه: «لا أستطيع ولا أريد أن أبقى أكثر من ذلك في برلين. فلترافقك أفضل تمنياتي!. مع صداقتي، المخلص جدا لك أوسكار نيدرماير»[17].

17. انظر: تركة شميت. ر ف 265 ـ 10384.

كلف نيدرماير في الأول من أيار عام 1942 بقيادة فرقة المشاة الـ 162. تلك كانت مهمة عجيبة بالنسبة إلى رجل لم يقد أية وحدة عسكرية منذ عقود، أي منذ الحرب العالمية الأولى. كما لم يكن قد سبق لنيدرماير أن قاد خلال حياته الوظيفية أية كتيبة أو لواء، ولم يدرس في أية كلية أركان، رغم أنه عمل كضابط أركان في الحرب العالمية الأولى. ومع أنه كان آنذاك في السادسة والخمسين، فإنه كان مؤهلا للعمل العسكري على خير وجه جسديا وروحيا. وقد أشار رئيسه في القيادة العليا للقوات المسلحة إلى ذلك، عندما كتب: «ومن النادر أن نجد رجلا في عمره له قوته ونشاطه». لكنه يبدو أنه كانت هناك شكوك في صدقيته الشخصية والسياسية، فهل يرجع ذلك إلى صلاته مع البلاشفة في العشرينات، وتقارير شرطة الدولة السرية عام 1935، وشخصيته التي اعتبرها ملاحظون كثيرون شرقية ومفعمة بالأسرار، أم إلى دعوى القدح والذم التي رفعها ضده فون هانتيج؟. مهما يكن من أمر، أعتقد كاتب التقويم أن من واجبه التأكيد على: «أنه ليس هناك من أساس للشكوك التي ظهرت حول سلوكه وطبعه».

لم تكن الفرقة 162، التي قادها نيدرماير منذ الأول من أيار 1942، كغيرها من الفرق[18]، فقد كانت لديها أيضا مهام سياسية، إذ كان على نيدرماير وأركانه تدريب أسرى الحرب الذين ينتمون إلى أقليات إتنية، وإقناعهم بالقتال إلى جانب الألمان. وكان يعيش في منطقة عمليات مجموعة لجيش جنوب عدد كبير من غير الروس، كما كان يقاتل هنا على الجانب السوفييتي أبناء شعوب قوقازية ومن آسيا الوسطى. ولأن الألمان توقعوا سقوط كتل كبرى من أسرى الحرب في أيديهم خلال هجوم الصيف 1942، فقد كلفوا نيدرماير بكسبهم إلى جانبهم.

18. انظر حول نيدرماير والفرقة، يواخيم هوفمان: القوقاز 1942 / 1943، الجيش الألماني وشعوب الشرق في الاتحاد السوفييتي. فرايبورج 1991.

كانت أركان الفرقة 162 مشاة، التي وضعت تحت تصرف نيدرماير، تابعة في الماضي لفرقة جيدة أبيدت في حرب شتاء 1942 على الجبهة الشرقية. وقد استقرت في مدينة صغيرة اسمها ميرجورود تقع في منتصف الطريق بين كييف وخاركوف، وتلقت حق الإمرة على معسكرات أسرى حرب عديدة، استخدمت أماكن تجميع للأسرى السوفييت الذين قبلوا الخدمة في «الوحدات الشرقية» للقوات المسلحة. وكان موقع معركة بولتوفا، التي أنزل خلالها بطرس الأكبر هزيمة ماحقة بجيش الغزو السويدي تحت قيادة كارل السابع، غير بعيد عن ميرجورود.

مات مئات آلاف الأسرى السوفييت عام 1941، عام الحرب الأول على الجبهة الشرقية، جوعا وبردا في معسكرات الأسر الألمانية، فأدرك بعض الجنرالات الألمان ببطء الأهداف الإجرامية التي يقاتلون من أجلها. أوردت مذكرة ألمانية وضعت بعد الحرب بتكليف من الفرقة التاريخية التابعة للجيش الأميركي في أوروبا تقريرا يصف الفظاعات الإجرامية للسياسة العرقية تجاه أسرى الحرب السوفييت عام 1941[19]: «لا زلت أتذكر بدقة كيف تبين لدى زيارة الجنرال التركي إيركيليت بمناسبة أسئلته عن أحوال ومعاملة أسرى الحرب الروس ذوي الثقافة والدين المحمدي، أن هؤلاء وصلوا إلى أيدي أطقم حراسة من ال إس إس، وأن 15 ألفا (أو أكثر) منهم قتلوا في مكان واحد، لجهل الحراس أن المحمديين يمارسون الختان، واعتقادهم أن أسراهم المختتنين يهود».

تحركت داخل القوات المسلحة تحفظات واعتراضات على سياسة هتلر. وطالب الأميرال كاناريس في مذكرة أرسلها يوم 15 أيلول 1941 بمعاملة الأسرى السوفييت حسب قوانين الحرب الدولية، وبتطبيق معاهدة

19. انظر جنرال المدفعية المتقاعد فالتر فارليمونت، في الأرشيف القومي، وكذلك: الاستغلال الألماني للسكان الأصليين في الحرب العالمية الثانية، ص 177.

جنيف عليهم، رغم أن الاتحاد السوفييتي لم يوقعها، وليس من المحتمل أن تكون هناك معاملة مماثلة للأسرى من جانبه. وحدد جنرال المدفعية البافاري إدوارد فاجنر، الذي كان نيدرماير يعرفه منذ وقت طويل، راتبا غذائيا كافيا للأسرى السوفييت، وقبل هذا وذاك كان رائد شاب وواعد يعمل في شعبة التنظيم التابعة للأركان العامة يشكل وحدات من المتطوعين من أسرى حرب شعوب الاتحاد السوفييتي جميعها، أراد خوض الحرب ضد الاتحاد السوفييتي بوصفها حرب تحرير ضد ستالين وليست حرب إبادة ضد الشعوب. هذا الرائد كان اسمه كلاوس شنك جراف فون شتاوفنبرج.

كان الرائد، الذي عرف سيرة حياة نيدرماير، وتجاربه الشرقية وسلوكه حيال الشرقيين والروس، هو الذي أوحى بتعيينه قائد الفرقة 162 مشاة[20]. وكان نيدرماير قد وضع معهده العلمي العسكري في جامعة برلين تحت تصرف شتاوفنبرج، حيث أجرى الرجلان حوارات دائمة. يتذكر أحد الشهود بعد الحرب إدارة شتاوفنبرج المتفوقة لهذه الأحاديث ويقول: «يقود شتاوفنبرج المناقشة في المعهد بطريقة تنم عن السيطرة، فهو يعطي أول الأمر الكلمة إلى المشاركين جميعهم قبل أن يعرج بأدب على الآراء التي يفصحون عنها». وكان شتاوفنبرج يقود المحادثة ببعد نظر نحو غايتها: «مثلما يلتقط مقامر أوراق اللعب وينظمها، هكذا كان شتاوفنبرج يجمع سائر الآراء وينظمها من خلال ملاحظات قصيرة في كل عضو واحد»، حتى أن نيدرماير، الأكبر سنا والأعلى رتبة كان يقبل دور شتاوفنبرج القيادي: «كانت طريقة شتاوفنبرج تضمر شيئا واضحا ومتفوقا، لذلك كانت كلماته لا تقابل بأي اعتراض. وحتى الجنرال الصعب والعنيد نيدرماير لم يكن يجد ما يعترض عليه فيها».

لم يعتبر نيدرماير عنيدا دون سبب، فعندما كان يضع لنفسه هدفا، كان

20. هانس فون هيرفارت: بين هتلر وستالين. تاريخ زمن معاش 1931 ـ 1945. فرانكفورت / برلين / فيينا 1982، ص 260.

يسعى إلى بلوغه بإرادته الحديدية، أما من كان يقف في طريقه، فكان يواجه المصاعب. وهذا ما عرفه في صيف 1942 المقدم الأستاذ د. أوبرلاندر من مكتب الشعبة الخارجية في قيادة القوات المسلحة العليا، الذي كانت له مواقف علمية وشخصية نقدية من نيدرماير منذ 1935، واعتبره بسبب أو بلا سبب منافسا أكاديميا. كان أوبرلاندر، الذي صار فيما بعد وزيرا اتحاديا لشؤون المطرودين تحت قيادة أديناور، يقود آنذاك مجموعة خاصة في شعبة مكافحة التجسس هي الوحدة الخاصة بيرجمان، التي تدربت منذ آذار عام 1942 في معسكر لوتنسي قرب ميتنفالد على العمل في القوقاز، ونمت من وحدة خاصة إلى كوكبة تضم وحدات مختلفة لديها قبل كل شيء ضباط صف على درجة رفيعة من التدريب[21].

كان نيدرماير يمتلك من جانبه كادرا متميزا من الضباط الموصوفين، لكنه كان يفتقر إلى ضباط صف يدربون ويقودون المتطوعين من أجل الحرب. لذلك أراد أخذ صف ضباط أوبرلاندر وحظي أول الأمر بمساندة أركان مجموعة الجيش جنوب. عندما التقى أوبرلاندر في 21 أيار 1942 مع نيدرماير في ميروجورود، لم ير غير «رهط محمديين عديمي التنظيم» هم أسرى الحرب الذين كانوا قد أعلنوا منذ وقت قصير استعدادهم للقتال إلى جانب الألمان.

أوضح نيدرماير عزمه لأوبرلاندر على تولي قيادة الوحدة الخاصة بيرجمان. لكن منافسه كان قد حصل من قبل على دعم رئيس شعبة المكافحة الأميرال كاناريس، الذي رفض فكرة نيدرماير، وقال بالحفاظ على الوحدة، وبضرورة أن تفتح في سياق الهجوم الألماني طريق الجيش عبر القوقاز إلى الجنوب، وتحتل ممر الصليب الاستراتيجي الحاسم الأهمية. عندما لاحظ نيدرماير أن مقاومة نواياه تحظى بمساندة من فوق، تخلى عنه

21. يقوم العرض التالي على حوار مع أوبرلاندر جرى في شباط 1998 في بون.

بسرعة خلال حديثه مع أوبرلاندر، وودع ضيفه بعد غداء جيد وكلام مهذب.

تصرف نيدرماير بحدة أكبر مع خبير آخر في شؤون الشرق[22]، هو الرائد أندرياس ماير ـ مادر، الذي كان بدوره قائد وحدة من الوحدات الخاصة، هي «نمر المكافحة ب»، التي كانت تابعة لشعبة المكافحة الخارجية في القيادة العليا للقوات المسلحة، قبل استبدال ماير ـ مادر بآخر. عمل الرائد منذ عام 1930 مستشارا عسكريا في الصين، وأقام خلال هذه الفترة صلات مع هانس فون سيكت، وحاول كسب تأييده للقوميين الصينيين في جنوب غرب الصين. أراد الرائد القيام بمحاولة لتحريض الهند الصينية المحتلة فرنسيا، وربما الهند ذاتها، انطلاقا من إقليم كوانجسي، وقد تكون أنشطته وصلاته مع سيكت الحافز الذي دفعه إلى القيام برحلته الأولى إلى الصين عام 1933.

وضع ماير ـ مادر أوراقه جميعها في السلة الآسيوية، وعين بصلاحيات منحها لنفسه ضباطا وصف ضباط تركمان، وتخطى الإطار الألماني حول سياسة تعيين الكوادر. حسب تقدير هانس فون هيرفارت قاد مادر متطوعيه كعصبة آسيوية وليس كوحدة من القوات المسلحة الألمانية. وقد منعه نيدرماير من دخول منطقة الفرقة. كما تذكر مرافق الجنرال عام 2000 أن هذا «كان يتخذ منه موقفا أكثر من متحفظ».

أعاد نيدرماير ماير ـ مادر، الذي كان معزولا بين الضباط، إلى مكتب المكافحة الخارجية في القيادة العليا، لكنه ذهب فيما بعد إلى الـ إس إس، التي كلفته عام 1943 بتشكيل «لواء كتائب الـ إس إس الإسلامية الأول» في سلاح فرق الـ إس إس تحت اسم «تركستان الجديدة». هنا أيضا، «عجز مادر عن إحكام قبضته على مجموعته»، على حد قول هيرفارت. وقد سرت

22. انظر: يواخيم هوفمان، القوقاز ص 138.

إشاعات كثيرة حول نهاية المغامر العجيب، يرى بعضها أن الـ إس إس قتلته رميا بالرصاص بعد محاكمة، ويرى بعضها الآخر أن الأنصار قتلوه.

توطدت فرقة المشاة رقم 162 في صيف 1942، بعد بداية صعبة، وكان لشتاوفنبرج نصيبا كبيرا في إنجازها هذا. أرسلت الفرقة يوم 27 أيار 1942 إلى قيادة مجموعة الجيش جنوب العليا خطة توجيهية حول معاملة الجنود التركمان والقوقازيين، كتبها شتاوفنبرج نفسه[23]، فتميزت الوثيقة بذرائعية مصلحية التوجه تخالطها لباقة الجندية، فنصت على احترام دين وثقافة الأسرى ومقاتلي المستقبل: «إن الثقافة، وخاصة ثقافة شعوب القوقاز، ذات مستوى رفيع، وهي تدين بوجودها إلى دين هذه الشعوب. فلا بد من احترام دين وعادات وتقاليد التركستانيين والقوقازيين، ولا يجوز بأي حال السخرية منها، حتى إن بدت غريبة في أعيننا».

من غير الجائز أيضا انتهاك كرامة الأسرى، لذا: «ليس من المسموح به تعذيب وإهانة التركستان والقوقازيين جسديا» وقد تم التقيد بصرامة بإطار التعامل الألماني مع الأشخاص، الذي ينص على ملاقاة الشعوب الغريبة بروحية منفتحة وشعور بالتعاطف: «على الكادر الألماني الظهور دوما بمظهر الرفيق والمساعد، فهذا من شأنه أن يبعث الثقة في نفوس أسرى الحرب ويجعل التأثير عليهم أكثر سهولة. أما الرعاية والعناية من جانب الألمان، فقد أحدثا دوما انطباعا عظيما لدى الأسرى، فإياك أن تكون أبدا متعجرفا أو فظا». بعد إلحاقهم أول الأمر بمجموعة الجيش جنوب، ما لبث نيدرماير وأركانه أن أتبعوا يوم 16 آب 1942 بالقيادة العليا مباشرة، بتدبير من شتاوفنبرج.

في الأول من أيلول عام 1942 تمت ترقية نيدرماير إلى رتبة جنرال، ليبلغ بذلك سائر الأهداف الشخصية التي كان يمكن التطلع إليها انطلاقا من

23. يوجد النص لدى يواخيم هوفمان: القوقاز، ص467 ـ 469.

معايير برجوازية ألمانيا ذات الطابع الفيلهلمي، فقد حاز على النبالة الشخصية، وكرسي تدريسي في أول جامعة ألمانيا، وإمرة فرقة. وبلغت سيرته الوظيفية ذروتها مع أقصى توسع بلغه الرايش الثالث، فالمنطقة الخاضعة لرقابة ألمانيا تمتد من الأطلسي إلى القوقاز، ومن القطب الشمالي إلى ليبيا في شمال أفريقيا. في حين كان الجيش السادس يقترب من الفولغا، وكانت دبابات رومل على بعد ستين كيلومترا من الإسكندرية. وهناك رسم كاريكاتوري وضعه أحد منتسبي الفرقة يظهر نيدرماير وهو يحلم باجتياز القوقاز والتقدم نحو الشرق[24].

لكن نيدرماير كان متشائما، لأنه كان يتابع باهتمام وقلق متزايد تقدم رومل ضد مصر. كان أحد القادة الخاصين، خبير الشرق والحقوقي كارل فون شوفينجن، ابن النائب في حينه ماكس فون أوبنهايم، يسكن في ذلك الزمن بيت نيدرماير في ميروجورد، حيث كان الجنرال يحلل خلال العشاءات وضع رومل، ويولي مشكلة المياه اهتماما خاصا: «الماء أكثر أهمية في الصحراء من أي شيء آخر، لذا ليس بوسع رومل البقاء في العلمين، وعليه إما التقدم أو التراجع».

تقيدا بالأصول، أعلم نيدرماير عميد جامعة برلين بالترقية التي نالها. ربما كان أستاذ الكرسي الوحيد في هذه الجامعة، الذي قاد في أي وقت فرقة: «أسمح لنفسي اليوم إخبار الجامعة بترقيتي إلى رتبة جنرال وتعييني قائد فرقة مشاة. إنني منذ أشهر عديدة في الشرق، مكلفا بمهمة صعبة وعظيمة جدا، تتفق وخبراتي الحربية السابقة، وتسعدني كثيرا، ثم أضاف كمحارب قديم: «لم أندم لأنني استبدلت القلم بالرشاش. كما أن مكاني كأستاذ يدرس الشباب الألمان السياسة العسكرية هو على الجبهة»[25].

24. توجد الرسوم الكاريكاتورية التي تظهر دور نيدرماير المركزي في بناء الفرقة ضمن تركة الأستاذ أرتور كون.

25. أرشيف جامعة هومبولدت، رقم 59، الورقة 48.

تلقى كارل هاوسهوفر بدوره أخبارا من أوكرانيا يوم 9 أيلول 1942، فقد أعلمه نيدرماير بثقة تملأ نفسه عن مهمته الجديدة «الشديدة الصعوبة ولكن الجميلة كذلك»: «إنني من جديد جندي من رأسي إلى أخمص قدمي، ولا تراودني هموم الوطن العادية إلا قليلا، بعد أن وجهت قدراتي الفكرية في اتجاه آخر». وتخترق نظراتي ببعد نظر يفوق ما يتمتع به غيري، المجال الأوراسي العملاق. يا لها من مهمة!». كانت الرغبة في المغامرة تحرك نيدرماير، أما الأحداث الصغيرة فكانت تشجعني: «قبل أيام قليلة نجاني الله، حين انقلبت سيارتي المرسيدس، التي كانت تتجه بسرعة 80 كيلومترا في الساعة إلى مقر القيادة الرئيس؟. أشعر أنني مؤهل روحيا وجسديا لإنجاز مهمتي كاملة. أفكر كثيرا بك وبأسرتك، التي أبعث إليها بتحية قلبية. بكل ولاء وصداقة، المخلص نيدرماير»[26].

جاء شتاوفنبرج إلى ميرجورود يوم 27 أيلول عام 1942، بعد أن بذل جهودا حثيثة في برلين للتخلص من بعض المصاعب التنظيمية وإيجاد كوادر ألمانية ملائمة، واهتم بالمترجمين والذخائر والخيول، خاصة وأن متطوعي نيدرماير كانوا سيقاتلون بأسلحة ألمانية وليس بأسلحة سوفييتية تم غنمها. أما خال شتاوفنبرج، الأمير نيقولاوس فون أوكسكول ـ جيلنباند، فقد عين قائدا للوحدة الأذربيجانية.

اختفى تقرير شتاوفنبرج حول زيارته إلى ميروجورد[27]. إلا أن صورة في تركة نيدرماير تظهر الشاب الطويل القامة والأنيق شتاوفنبرج إلى جانب نيدرماير الصغير الذي تقدم به العمر، الذي بدا جليا أن وزنه ازداد. إن لغة جسده كما تبدو في الصورة كثيرة الإيحاءات، فالمرء الذي كان حريصا على أن يقف دوما في مركز الصور، يبدو الآن كضابط تابع يقدم سعيدا وحدته إلى شتاوفنبرج.

26. توجد رسالة نيدرماير إلى هاوسهوفر في الأرشيف الاتحادي.
27. انظر: يواخيم هوفمان: القوقاز 1942/ 1943.

تكونت فرقة نيدرماير خلال فترة تدريبها في خريف عام 1942 من أربعة وحدات وطنية هي الوحدة التركستانية الأولى والثاني في رومني، والوحدة الأذربيجانية في بريلوكي والجورجية في جادياك والأرمنية في لوخفيكا. كما جند نيدرماير ورجاله في الحقبة الواقعة بين أيار 1942 وأيار 1943 أكثر من 25 فوج مشاة معزز من معسكرات أسرى الحرب السوفييت، وألحقوها بالجيش الألماني. هكذا تحول أسرى الحرب إلى مقاتلين مساندين.

في الثاني من تشرين الثاني 1942، قبل أيام قليلة من تطويق الجيش السادس في ستالينجراد، قدم نيدرماير لمحة عن وضع وإمكانية استخدام أفواج الأتراك، وأبلغ في الوقت نفسه الجيش السادس عن إمداده بأفواج مشاة إضافية من الوحدة التركستانية «تتصف بحبها للحرية والاعتزاز بهويتها». ونصح بإبداء الاحترام لقدراتها القتالية، وأضاف: «إن قدرتها على التكيف كبيرة، وهي شجاعة، موثوقة وموالية عموما». أما الأمر المهم، فينصب على ما إذا كان الألمان يحملونها على محمل الجد كقوات حليفة تشاركهم القتال، ويعاملونها دوما بصفتها هذه. وكان نيدرماير قد اقتدى لدى تخطيط وتنظيم وحدات الشعوب التركية بالجيش الهندي الذي يقوده البريطانيون[28].

عاد نيدرماير في شتاء عام 1942 / 1943 إلى اهتماماته القديمة خلال الساعات القليلة الخالية من الخدمة، عقب وقوع كارثة الجيش السادس في ستالينجراد. وكان يشتغل آنذاك على تأسيس مملكة المغول في الهند. وقد أهدى إلى واحد من ضباطه كتبا تذكارية ألفها المستشرق الفرنسي جروسيه والإنجليزي ستانلي لين ـ بول عن بابور، التيموري وقيصر الهند الأول، وضع تحت مقاطعها المتعلقة بأفغانستان خطوطا كثيرة. كان نيدرماير يريد تأسيس شعور مشترك لدى أسرى حرب آسيا الوسطى بالاستناد إلى التاريخ والثقافة والدين. وقد أوضح منافسه القديم فون هانتيج، المسؤول في وزارة

28. رسالة العقيد كونراد بار إلى المؤلف يوم 29 أيلول 2001.

الخارجية عن معالجة القضايا الطورانية العامة، في تشرين الثاني من عام 1942 قائلا: «تفتقر الكتلة الأكبر من ذوي الأصل التركي في الاتحاد السوفييتي إلى شعور طوراني مشترك، فلا بد من إحياء هذا الشعور أو إعادة أحيائه لديها. هذه هي المهمة الأولى والأكثر أهمية»[29].

قدم نيدرماير إلى ضباطه وضباط صفه «نقاط استناد من أجل الدروس السياسية، التي يلقونها على الوحدات التركية الأصل»، تستند على استمرارية السياسة الألمانية تجاه الشرق[30]. كانت نقطة انطلاق نيدرماير عام 1942 على صلة مباشرة مع زمن شبابه ومغامراته في فارس وأفغانستان، ونشاطه السري في خدمة هانس فون سيكت. وكانت مواد دروسه تذكر بزيارة القيصر إلى دمشق وإعلانه عزمه على حماية الشعوب الشرقية، وتشير إلى سياسة ألمانيا في القوقاز عام 1918، وإلى هرب ساسة قوميين قوقازيين وتركستانيين إلى ألمانيا لإبان جمهورية فايمار.

انتقد نيدرماير في الوقت نفسه رأسمالية القوى الأنجلوساكسونية العالمية الأبعاد. فهل أعتقد أنه يستطيع بذلك الإفادة من التحريض الأيديولوجي السوفييتي ضد القوى الغربية الرأسمالية؟. مهما يكن من أمر، لم يكن «النظام الاجتماعي لما يسمى الليبرالية» في نظره قدوة مقنعة طبعت قيما كونية بطابعها، بل كان نتاج التصنيع الرأسمالي وفق النموذج الإنجليزي. وقد حددت الليبرالية كأداة وهدف السياسة الأنجلوساكسونية في الداخل والخارج: «من الضروري لتطور الرأسمالية أن تنتفي سلطة الدولة في الداخل. لذلك يهدد الأخذ بأسس الرأسمالية الاستقلال الوطني ويقوض العدالة الاجتماعية». ثم شرح نيدرماير للجنود القوقازيين والقادمين من آسيا

29. فون هانتيج: مذكرات سرية حول قضايا الشرق الأدنى بتاريخ 6 تشرين الثاني 1941. كتبت من أجل الشعبة السياسية في وزارة الخارجية. الأرشيف القومي، ت 120/ 28.

30. في الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري، رقم 122/ 3.

الوسطى «أن انتشار الليبرالية الكوني يجسد تهديدا جوهريا لمصالحهم الخاصة، لأن تذبذبات البورصة والمضاربات تجعل العمال بلا حماية، وتسبب بطالة دائمة تعرضهم لضروب شتى من الابتزاز تنزع عنهم أية حماية اجتماعية»، بينما تربط البرلمانية من الطراز الأنجلوساكسوني الأحزاب السياسية بالمصالح الاقتصادية. ثم يأتي تأكيد ملتبس المعنى يبين كيف يتم خداع: «الطبقة العاملة عبر مجموعات تسمى أحزابا عمالية، لكنها تضع نفسها في خدمة الرأسمالية». ألم يعتبر حزب هتلر نفسه «حزب عمال»؟. على أية حال، رأى نيدرماير أن التجارة الدولية منظمة حصرا وفق وجهات نظر تنطلق من الربح ولا تنطلق من حاجات البشر: «تفتقر الرأسمالية إلى اعتبارات أخلاقية، أما الدليل على ذلك فهو حرب الأفيون بين إنجلترا والصين عام 1840». لم يترك نيدرماير شكا في هوية بلدان الرأسمالية الكلاسيكية، التي تمثل العدو الأصلي: «ألا وهي إنجلترا وأميركا».

ربط نيدرماير في نقاط الاستناد المخصصة للدروس السياسية بين نقد الرأسمالية وبين عداء الاشتراكية القومية لليهود، واعتبر البلشفية الشكل الروسي من الماركسية: «تنشأ الفكرة عام 1903 في إنجلترا، وتم تمويلها بصورة رئيسة من قبل اليهود الذين يعيشون هناك». ثم عدد أهداف البلشفية، فإذا هي: «الثورة العالمية، إلغاء الملكية الخاصة (الملكية سرقة)، اضطهاد الدين (أفيون الشعب)، إنكار الخصائص القومية»، ووضع مقابلها أيديولوجية الاشتراكية القومية: «الاشتراكية القومية هي نظرة ألمانية صرف إلى العالم، وليست سلعة للتصدير، وهي اشتراكية قومية».

عزا نيدرماير أهمية خاصة إلى الدين، إلى جانب وجهات النظر القومية والاقتصادية. إلا أن صدى أقواله لم يتفق مع توقعاته، بسبب عدم اكتراث آسيا الوسطى بالدين. لذلك يمكن لدورات تأهيل مخصصة للشيوخ سد النقص في الواعظين الملائمين، العارفين باللاهوت الإسلامي، لأن شيخ الفرقة ذاته، وهو أوزبيكي كهل شريف ووقور، كان يفتقر إلى تأهيل إسلامي

رفيع، لكنه كان يستطيع على كل حال قراءة القرآن بالعربية، وفهم بعض الكلمات الفارسية. لم يتم احترام منع الإسلام للخمر، بيد أنه تم التقيد بالعادات التقليدية مثل الغسل الطقسي وتعليمات الطعام.

احترم الكادر الألماني التقاليد الدينية للوحدات الإسلامية، وقد أسهم في هذا كتاب «الإسلام»، الذي ألفه الطبيب العسكري الأستاذ إرنست روزنفالد، ويعتبره الخبراء اليوم أفضل مدخل تمهيدي إلى الإسلام. صحيح أن بعض منتسبي الفرقة الألمان اعتبروا الرعاية الدينية أمرا مبالغا فيه[31]. لكن تفهم نيدرماير للدين والثقافة خلق انطباعا لدى مرؤوسيه المسلمين بأنه «واحد منهم».

أي دور لعبت بالنسبة إليه آنذاك الصلات التي أقامها خلال رحلته الفارسية المبكرة مع البهائيين؟. هل فكر بدراسات أستاذه في إرلنجن جورج ياكوب حول البكتاشيين والصوفيين؟. هل كان دعمه الحازم للتدين الإسلامي سلوكا قياديا تكتيكيا أو إشارة إلى ميله الديني؟. مهما يكن من أمر، فقد نجح نيدرماير في تخطي الانقسام الديني: «وكانت لديه قوة تأثير هائلة على الآخرين، وخاصة منهم الشرقيين، الذين شعروا بانجذاب شديد إليه»[32]. أخيرا، علق نيدرماير في نقاط الاستناد أهمية خاصة على عدم إثارة مشاعر معادية للروس. ويتذكر أحد منتسبي الفرقة الألمانية عام 1973 أن نيدرماير «نجح في إبقاء وعي المتطوعين الأتراك، الذين كان يجب تحريرهم من السيطرة الروسية، خاليا من أي كره تجاه الشعب الروسي»[33].

31. د. هانس جونتر سيرافيم: متطوعو القوقاز والشعوب التركية في الجيش الألماني. الأرشيف القومي، م س ـ ث 043.
32. رسالة العقيد المتقاعد كونراد بار إلى المؤلف في 21 كانون الثاني 1998.
33. كاري فو شوفنجن: أوسكار ريتر فون نيدرماير والفرقة التركية. ص 2.

حوادث

سجل الديبلوماسي كورت بروفر يوم 5 تشرين الأول 1942 لقاء غريبا في يومياته. وكان بروفر سفير الرايش الألماني في ريو دو جانيرو حتى دخول البرازيل في الحرب، والتقى يوم 23 تشرين الأول مع وزير خارجية الرايش في مقره الحربي «فيلد مارك» في أوكرانيا، ثم التقى مصادفة في مقصورة القطار بنيدرماير، الذي كان عليه مراجعة برلين عقب صدام مع دوائر في الحزب النازي، وشكا بمرارة من وزارة ألفريد روزنبرج الشرقية والمحافظين القساة، الذين يجندون عمال سخرة في المناطق المحتلة، بينما تطبق في الوقت نفسه خطط استعمارية «غبية»، لجعل مجموعات قليلة من الفلاحين الألمان اليائسين في أوكرانيا[34].

كان نيدرماير يعرف الشخص الذي يطلعه بقلب مفتوح على آرائه، والذي تتلمذ على جورج ياكوب في إرلنجن، وكان أحد أكثر خبراء العالم العربي اجتهادا في وزارة الخارجية، وكتب أطروحة دكتوراه حول مسرحيات خيال الظل الشرقية، وانتسب كجروبا ونيدرماير إلى وحدة يلدريم في فلسطين. وكان لبعض الوقت رئيس الجمعية الألمانية الشرقية، ومنذ عام 1931 ممثل ألمانيا في فلسطين، قبل أن يصير في الرايش الثالث مدير ورئيس شعبة الذاتية المركزية في وزارة الخارجية.

كان كونراد بار يرافق نيدرماير خلال رحلته بالقطار إلى برلين، وقد أبدى رأيه على النحو التالي تجاه ما كتبه بروفر في يومياته[35]:

«أسهمت شخصيا في خلفيات هذه الرحلة إلى الأمانيا:

34. انظر دونالد ماك كال: إعادة كتابة التاريخ. كنت يونيفرستي برس 1988، ص 131.

35. رسالة العقيد المتقاعد بار إلى المؤلف يوم 21 آذار 1999. أما تصريح نيدرماير في حضور روزنبرج فقد أبلغها بار إلى المؤلف يوم 21 كانون الثاني عام 1998 في نوبيبرج.

مكان الحدث: مقر قيادة الفرقة الريش في ميروجورود في أوكرانيا.

زمانه: منتصف ليل آخر يوم من آب / أيلول 1942.

وكان ما يسمى «لجنة تعبئة» قد مشطت قريتنا بحثا عن قوى عاملة نسائية «متطوعة» للعمل في ألمانيا. هذه اللجنة كانت ترتدي ثيابا شبيهة بثياب الـ س آ.

كان قطر بضائع مليئا بالسيدات الشابات، اللواتي كان قسم منهن مخطوبا لجنودنا من الأصول التركية، يقف على أهبة الرحيل في محطة قطار المصح السوفييتي.

كنت نائما بعمق عندما أيقظتني سرا واستنفرتني عاملة أوكرانية في الكازينو التابع للفرقة.

بعد إبلاغ النبأ الفوري إلى قائد الفرقة، تلقت سلطة فتح عربات القطار جميعها، بالقوة أن تطلب الأمر، وإرسال السيدات الشابات إلى أسرهن في القرية.

وقد تلقى قائد الفرقة أمرا بالتوجه إلى روزنبرج في برلين من أجل تسويغ هذا التدبير».

يكمل منتسب آخر إلى الفرقة وصف ما حدث[36]: «لم أكن حاضرا عند وقوع الحادث الذي يصفه العقيد بار في محطة قطار ميروجورود، لكنني أتذكر بدقة أنه كان قد تقرر صباح ذلك اليوم من شهر أيلول إجراء تدريب للضباط على إطلاق النار بالمسدس في أحد المروج الخضراء. وقد وصل المقدم بار متأخرا (من محطة القطار مباشرة) ووصف لنا الحادث بانفعال داخلي عظيم». التقى نيدرماير مع روزنبرج في برلين، حيث برر أمره بإفراغ

36. كتاب كارل فون شوفينجن إلى المؤلف بتاريخ 24 آذار 1999.

القطار من الفتيات الأوكرانيات بملاحظة تقول: «إذا طلبنا من فرقة القتال من أجلنا، يصبح من غير المقبول انتزاع نسائها منها».

أشاع التجنيد الإجباري للنساء العاملات الاضطراب في منطقة تمركز الفرقة، وكذلك فعلت ستالينجراد وتطور الوضع غير الملائم على الجبهة الشرقية بمجملها، وتلاشي حظوظ الألمان في النصر، والدعاية السوفييتية المتزايدة وعمليات الأنصار، وقبل هذا وذاك استبدال الإدارة العسكرية الألمانية بإدارة مدنية تولاها مفوض الرايش لشؤون أوكرانيا. هذه العوامل أدت إلى إحداث تحول في مزاج الشعب الأوكراني. إن العمل التعسفي، والترحيل الإجباري، وزيادة أتاوة المنتجات الزراعية، والأعمال الانتقامية والتدابير العنيفة هيجت الشعب ضد الألمان.

وقع في كانون الثاني من عام 1943 حادث خطير في بريلوكي، مكان إقامة الوحدة الأذربيجانية على بعد حوالي مائة كيلومتر شمال غرب مقر الفرقة الرئيس في ميروجورود[37]. كان خال ستاوفنبرج العقيد فون أوكسكول قائد الوحدة الأذربيجانية. وكان السيد الكهل، الذي ولد عام 1877 في المجر، الصبي البكر لأسرة قديمة من منطقة البلطيق، وقد خدم في الجيش النمساوي ـ المجري القديم، انسجاما مع تقاليد عائلته، وكانت لديه منذ ذلك الوقت خبرة في التعامل مع وحدات عسكرية متعددة القومية. بسبب تقدمه في السن، دعي الأمير عام 1941 لأول مرة إلى الخدمة في القوات المسلحة، وألحق بجنود قريبه شتاوفنبرج بفرقة نيدرماير.

عرف الأمير عام 1943 بعمليات إعدام جماعي جرت في القطاع الخاضع لإمرته، وقيل أن المقتولين كانوا شيوعيين. احتج الأمير شخصيا لدى الضابط المسؤول في «الشرطة الأمنية الألمانية»، الذي ادعى أنه فعل ما

37. ألبرت شبيت: تكريما للأمير فون أكسكول. فصلية التاريخ الحديث، الجزء 8، 1960، ص 188 ـ 192.

فعل بأمر من أعلى المستويات، فما كان من الأمير إلا أن أمر مجموعة مسلحة من المشاة الأذربيجانيين يقودها ملازم ألماني باحتلال السجن وتحرير المعتقلين الذين ينتظرهم الموت. كما أمر باستخدام القوة إذا لزم الأمر لمنع تعذيب أو قتل أو ترحيل المعتقلين إجباريا. ورد على سؤال الضابط المكلف بقيادة الجند حول ما إذا كان الأمر يشمل استخدام القوة ضد جهات رسمية ألمانية بالإيجاب، قبل أن يزوده بكتاب خطي يتضمن نصا صريحا بالأمر.

عندما وافقت الشرطة الأمنية الألمانية على وقف الإعدامات، وعلى انتظار توجيهات أخرى، سحب الأمير مشاته. لكن سجناء أعدموا في الليلة التالية رميا بالرصاص، فأمر الأمير باحتلال السجن، فتوقفت عمليات الإعدام في بيرلوكي إلى أن انسحبت الفرقة بعد فترة قصيرة إلى ألمانيا. قال ضابط شاب تذكر هذه الواقعة فيما بعد: «وقف نيدرماير إلى جانب الأمير، ولم يفعل شيئا من شأنه إعاقة تدابيره أو إضعاف موقفه». وقد شنق الأمير في بلوتسنسي بتهمة معرفته بالاعتداء على هتلر يوم 14 أيلول عام 1944.

بينما عارض نيدرماير تعديات السلطات الألمانية على السكان المحليين، تصرف بقسوة ضد الفارين والمحرضين في صفوف الألمان أنفسهم، وكان من الصعب أن يجد هؤلاء الرحمة لديه. وقد حكم بالفعل على 21 متطوع في الفرقة 162 بالإعدام بين 1 تشرين الأول عام 1942 و 1 أيار 1943 بسبب تخريب معنويات القوات، أو التخريب، أو محاولات القتل أو الفرار من الخدمة، ونفذت فرق قتل الأحكام.

نويهامر

ليس ممكنا على الإطلاق المبالغة في أبعاد النتائج النفسية التي ترتبت على معركة ستالينجراد. حتى ستالينجراد، كانت القوات الألمانية المسلحة في الوعي العام منتصرة دوما، أما منعطف الحرب الأصلي، عنيت فشل حملة الشرق أمام موسكو بداية كانون الأول عام 1941 فلم تكن في نظر

معاصريه الحدث الذي قرر مصير الحرب. والآن، وبعد عام فقط، تبدل الوضع بالنسبة إلى الجميع بطريقة لا يمكن تجاهل معناها: فقد هزم فيلق رومل الأفريقي في العلمين، ونزلت قوات أميركية إلى الشاطئ في شمال أفريقيا، وتم تطويق الجيش السادس في ستالينجراد، وأبيد في معركة شتوية رهيبة.

لا بد أنه كان شهر تشرين الثاني من عام 1942، عندما التقى نيدرماير بصحبة مرافقه المقدم الشاب بار من جديد مع شتاوفنبرج في مقر الفوهرر الرئيس في راتسنبورج[38]. وكان الأخيران قد التقيا آخر مرة في ميروجورود يوم 27 أيلول عام 1942، وقد قيض لبار أن لا ينسى بقية حياته حديث نيدرماير مع شتاوفنبرج، لأنه أدرك لأول مرة أن ألمانيا يمكن أن تخسر الحرب العالمية: «سيبقى في ذاكرتي على الدوام دعوة عفوية وجهها شتاوفنبرج إلى نيدرماير وإلي، عند زيارتنا الأولى، إلى محاضرة قصيرة عن الوضع في غرفة العمليات الكبيرة الفارغة في مقر الفوهرر الرئيس، حيث وصف شتاوفنبرج لنا بكلمات ضارعة وضع جيش باولوس المحزن في ستالينجراد، فعرفت لأول مرة في هذه الحرب نتائجها المريعة بالنسبة إلى نهاية الحرب، التي سنواجهها. هذا الحديث الحميم الصريح، الذي أجراه الرجال الثلاثة، دل على توافق داخلي خاص بين الجنرال وشتاوفنبرج».

كتب نيدرماير في 20 تشرين الثاني 1942، تحت الانطباع الذي أحدثته الكارثة الوشيكة، نصا «سريا»[39]. هذه الوثيقة تم نسخها وتوزيع عدد محدود منها على دائرة ضيقة من المقربين. بالنظر إلى الخسارة المرتقبة لجيش ألماني كامل، رأى نيدرماير أن ألمانيا ستخوض مستقبلا قتالا يائسا ضد الاتحاد السوفييتي وهي في وضع دفاع استراتيجي: «لا جدوى من أن

38. رسالة العقيد المتقاعد بار إلى المؤلف المؤرخة في حزيران 1999.
39. في أرشيف الحرب بميونيخ، س 2509.

نكسر اليوم رؤوسنا حول سؤال كيف ولماذا استهنا بقدرة الدولة السوفييتية على المقاومة، وهل كانت معرفتنا بها ستفضي إلى توجيه الحرب في مسارات أخرى. لم يعد هناك اليوم رجوع». وضع المؤلف خطا تحت كلمة «لا رجوع» ثم أضاف: «تدور الحرب حول وجود أو عدم وجود الشعب الألماني، وهي تدور في أشكال مختلفة تماما عن تلك التي عرفتها الحرب العالمية الأولى، تتصف بالقسوة الأكبر وبتعاظم خروجها على أي قانون». كان نيدرماير يعلم أن هذا الصراع لا يرتبط برابط مع الحرب الكلاسيكية بين المتحاربين: «أن الصراع الذي تكمن جذوره في النظرتين الاشتراكية القومية والبلشفية إلى العالم قد وسم الحرب منذ بدايته بطابع حرب أهلية، وجعل الأعداء يستخدمون الوسائل التي تعد بالنجاح». لذلك، سيدور الأمر مستقبلا حول النجاة: «إن عدم استخدام الأسلحة، المادية والروحية، التي تعد بالنجاح لدى العدو، هو الغباء بعينه». هذه الحرب ضد شعب قريب من الطبيعة وبدائي كالشعب الروسي لا يمكن أن تكسب إلا بالصلابة الذاتية والفكر المتفوق.

قدم نيدرماير طلبا بنقل الفرقة إلى منطقة الرايش. وفي عيد ميلاد العام 1942، وبينما كانت كارثة ستالينجراد تبلغ ذروتها، استجابت قيادة الجيش العليا لطلبه، وحددت لها ميدان التدريب نويهامر في سيليزيا كمكان جديد لتدريباتها. ولكن الفرقة أرسلت على عجل حتى شباط 1943 أفواج أتراك مدربين إلى الجبهة، رغم انتقالها الوشيك. بالتوازي مع ذلك، بدأ الانتقال إلى منطقة الرايش تحت اسم سري هو «فوجلباور»، وأرسل منذ الأول من شباط 1943 عدد يصل إلى 4800 جندي شرقي كانوا في معسكرات تدريب الفرقة إلى سيليزيا بالقطار.

أخبر نيدرماير «المتطوعين» في منشور بما حدث: «لم يأت نقل الفرقة إلى ألمانيا بناء على رجاء ملح مني وحسب، بل جاء كذلك تلبية لرغبة صادقة منكم». وأعلمهم أن بانتظارهم مساكن دافئة ومضاءة، وقاعات تعليم

وتدريب، وتجهيزات للاستحمام والغسيل. كما يستطيع أبناء الفرقة استغلال الفرصة للقيام برحلات في ألمانيا: «وستتعرفون على دولة اشتراكية أخرى، يعيش مواطنوها في ظروف أفضل وأكثر حرية وسعادة من ظروف «وطن جميع الكادحين» ـ هكذا كان الاتحاد السوفييتي يلقب نفسه ـ . وستنتقلون إلى وضع يمكنكم من أن تقرروا بأنفسكم أي نوع من تنظيم الدولة ومن الحرية أحب إليكم: الألماني أم السوفييتي. ويجدر بكم أن تعرفوا كيف تبدو الحياة التي نتمناها لكم ولشعوبكم وأسركم». وقد خلا المنشور من أية كلمة حول وضع الحرب الراهن، وأية كلمة حول ستالينجراد[40].

غادرت أركان الفرقة أوكرانيا في 11 شباط 1943. كانت الفرقة إلى الآن وحدة تدريبية لقوات مساندة تم تشكيلها وإلقاؤها على الجبهة بسرعة. أما في المستقبل، فكان يجب أن تتحول إلى فرقة نظامية في القوات المسلحة، تشبه الوحدات السكان الأصليين التي تم تجنيدها في الإمبراطورية البريطانية، لذلك تقرر أن يكون لها هيئة ضباط منتقاة بعناية، مع أنها لم تبلغ في أي وقت القدرة القتالية لكتائب الجوركا، التي كان نيدرماير يضعها تحت أعين ضباطه كقدوة تحتذى. كان نيدرماير يرجع مرارا وتكرارا إلى تجارب البريطانيين مع الوحدات الهندية، التي كانت تجند من مرتزقة وليس من أسرى حرب.

تدربت الفرقة بصورة جدية في نويهايمر السليزية بين شباط وأيلول من عام 1943، وكان باستطاعة نيدرماير أخيرا إظهار ميوله التربوية وقدراته التنظيمية، وتم إرسال أرمن وجورجيين وقوقازيين شماليين مع بعض البوذيين إلى وحدات القوات المسلحة الأخرى، حتى أن الفرقة 162 كانت تقتصر في النهاية على ضباط ألمان ومجموعات من الشعوب الإسلامية، توزعت على

40. وصل المنشور إلى وثائق التحقيق السوفييتية مع نيدرماير. وقد أرسله إلي مع صورة الجنرال الأخيرة بالبريد الإلكتروني الصحافي الروسي السيد شتول.

ثلاث جماعات هي الأذربيجانيين ومنتسبين إلى الشعوب التركية وبضع مئات من الطاجيك، الذين أبدى الضباط الألمان إعجابا خاصا بفولكلورهم.

كان الأذربيجانيون يشكلون ربع إلى خمس منتسبي الفرقة من أبناء الشعوب التركية، واعتبر التعامل معهم سهلا، وكوّنوا لواء المشاة رقم 314، وكتيبة من لواء المدفعية رقم 236، ولواء إشارة وفوج المشاة 329، الذي تم تشكيله عام 1944. بينما شكلت شعوب الترك في آسيا الوسطى بقية وحدات الفرقة، وهي لواء المشاة 303، وكتيبتان من لواء المدفعية 236، وفوج استطلاع ولواء تموين. لم يبرز التركمان إلا قليلا بين أبناء آسيا الوسطى، في حين بدا الكازاخيون غامضين، ربما بسبب قسمات وجوههم ذات الملامح المنغولية القوية، واعتبر الأوزبيك «صعبين» لأنهم كانوا «القوم الأكثر عيشا في المدن». شكّل الألمان أركان الفرقة وأركان الألوية والأفواج. كما أن معظم قادة الألوية وكذلك كتائب انضباط الألوية 303 و 314 مشاة والدرك الميداني المسؤول عن حفظ النظام كانوا من الألمان. إن التسمية العامة المستخدمة في وصف الفرقة 163 ـ فرقة المشاة الترك ـ، لم تكن صحيحة إذاً إلا بصورة محدودة، لأن وجود الطاجيك والألمان جعل منها وحدة متعددة الإتنيات والثقافات.

أعطى نيدرماير جنوده حرية أكبر في ألمانيا. وسمح لهم بمغادرة مكان التدريب في نويهامر من أول شهر نيسان عام 1943. وقد رأى أحد رجال استخبارات نيدرماير، الذي كان ينقل إليه بصورة دورية أخبار عن مزاج الوحدات، في هذا الإجراء واحدة من أكثر الرغبات التي أراد «الأطفال المدللون» تحقيقها. إن الضباط وصف الضباط غير الألمان كانوا يستطيعون التحرك بحرية ودون مرافقة في مركز الإقليم وهم يرتدون بذّات عسكرية ألمانية، بينما كان الجنود يتحركون بحرية بمرافقة جنود ألمان خارج ميدان التدريب، ويقيمون صلات مع السكان الألمان. كما نظمت الفرقة «مساءً متنوعاً» في بريسلاو، قدمت فيه فولكلورا قوقازيا ومن آسيا الوسطى. في

حين سافر أعضاؤها إلى برلين ودرسدن، حيث أثاروا بثيابهم العسكرية الألمانية فضول سكان هاتين المدينتين الكبيرتين.

تجددت متاعب نيدرماير مع ممثلي النظام النازي وأيديولوجيته العرقية[41]، ذلك أن الفرقة أشارت في أحاديث مع مستشارين إقليميين، ورؤساء دوائر، ورؤساء بلديات وقادة نازيين محليين في منطقة تمركزها إلى ضرورة الحفاظ على علاقة طيبة بين السكان المدنيين ومنتسبي الفرقة، علما بأن المشاركين المدنيين في الأحاديث كانوا يعبرون خلالها عن مخاوفهم من أن «تفتقر السيدات والآنسات الألمانيات إلى التحفظ الضروري تجاه الجنود الأغراب ويستسلمن لهم».

لم يكن هذا وحده في نظر نيدرماير سببا كافيا لمنع أبناء الفرقة من الخروج. وكان يرى أن العلاقات الحميمة بين السيدات الألمانيات وجنوده ليست إثما، «لأنهم لم يعودوا أسرى حرب، بعد أن أقسم جنوده يمين الولاء للفوهرر وارتدوا البذة العسكرية الألمانية». إلا أن قيادة الفرقة نقلت يوم 10 آذار 1943 من قبيل الحذر موقفها إلى شرطة الدولة السرية في بريسلاو وطلبت إليها إبداء رأيها في الموضوع.

جاء الرد في 26 آذار فلم يترك محلا لغموض. صحيح أن الشرطة أقرت أنها لا تستطيع عمل شيء ضد منتسبي الفرقة لكونهم جنودا في القوات المسلحة، لكنها أعلنت عزمها على التدخل بحزم ضد النساء الألمانيات «اللواتي يقمن علاقات جنسية معهم»، وأضافت أن «الأسس العرقية الاشتراكية القومية ترى أن أية سيدة تقيم علاقات حميمة مع أعضاء من شعب غريب العرق تفقد شرفها، وعليها أن تتوقع معالجة أمنية على يد شرطة الدولة السرية». لم تترك شرطة بريسلاو غموضا حول نوع هذه

41. كان عدد من آخر الوثائق التي أعادتها أميركا إلى ألمانيا يتعلق بالمسلمين الذين تعاونوا مع الجيش الألماني. انظر الأرشيف القومي 242/ 1048.

«المعالجة الأمنية» حين قالت: «إن من مهام شرطة الدولة السرية تقديم الحماية الحازمة لأسرة الجندي الألماني ومكافحة الأخطار العرقية السياسية. لهذا السبب، سيتم إلقاء القبض على أية فتاة ألمانية تدخل في علاقة جنسية مع جندي تركي أو سواه من الأشخاص الغريبي العرق، وستحول إلى معسكر اعتقال».

بعد أيام قليلة، في 31 آذار 1943، تم إعلام الضباط بالرسائل المتبادلة مع شرطة الدولة السرية، ونصحت الفرقة باتباع الأسس التالية:

1. ليس الاتصال الجنسي مع سيدات وفتيات ألمانيات مرغوبا فيه بطبيعة الحال، لكنه لا يمكن منعه ببساطة. من الضروري الإحجام أول الأمر عن مناقشة هذه النقطة الحساسة مع «المتطوعين».

2. لكنه يجب لفت نظر هؤلاء بجدية إلى أنه ليس مسموحا لهم مضايقة النساء والفتيات الألمانيات.

ثم أكد نيدرماير في إعلان تكميلي: «تتفق الفرقة وشرطة الدولة السرية أتم الاتفاق في كل ما يتعلق بالعلاقات الجنسية بين الجنود والسيدات الألمانيات». قبل أن يضيف: «لكن الفرقة تعي أن من الضروري مراعاة الحكمة بخصوص بعض القضايا التي ترتبط بهذا الموضوع». ويختم محذرا ضباطه: «إن مناقشة مسائل عرقية مع الجنود ليست أمرا مرغوبا على الإطلاق».

هذا الحادث ربما كان الدافع إلى إجراء دراسة علمية تستحق الاهتمام. إذا كانت العلاقات الحميمة مع «أعضاء في شعوب غريبة العرق» تقود إلى معسكر الاعتقال، فقد كان من الضروري إثبات وجود «قرابة عرقية» مع القوقازيين وأبناء آسيا الوسطى. إن علم الشعوب البدائية الأنتروبولوجي، الذي عرف خلال الرايش الثالث تحت تسمية «علم الأعراق»، كان من الفروع العلمية التي أعطت ثمارا غريبة. وقد درس معهد الأنتروبولوجيا في

جامعة بريسلاو صيف عام 1943 بطلب من نيدرماير ما إذا كانت الشعوب التركية الآسيوية الوسطى الممثلة في الفرقة 162 فرقة مشاة الترك ـ يمكن أن تحتسب على العرق الطوراني، القريب من «الديناريين» الذين ينتمون إلى العرق الآري. وكان أنتروبولوجيون روس قد أكدوا منذ نهاية القرن التاسع عشر وجود عرق طوراني هو شكل وسطي يجمع العرقين المغولي والأوروبي. ولحسن الحظ، فقد اعتبر فون أيكشتيت، مدير المعهد من يسمون الطورانيين جزءا من الأوروبيين.

هكذا تم بقيادة فون إيكشتيت ومساعدته إيلزه شفيدتسكي إجراء مسح عرقي طال 1400 كازاخي وقرغيزي وأزبيكي وتركماني وطاجيكي و400 أذربيجاني خلال خمسة أيام من صيف عام 1943، فجاءت النتيجة متفقة مع نظرية الأستاذ ورغبات نيدرماير، وقوضت الدراسة الأساس العلمي لحجاج الأيديولوجيين النازيين العرقيين في النزاعات القادمة بين الفرقة وشرطة الدولة السرية: «وصلت الدراسات التي أمكن لمعهد الأنتروبولوجيا في جامعة بريسلاو إجراءها على ممثلي القبائل الخمسة الرئيسة الموجودة في غرب تركستان (الكازاخ، والقرغيز، والأوزبيك، والتركمان، والطاجيك) إلى نتيجة تقول إن العرق الطوراني موجود حقا». هذا «العرق الطوراني ليس «غريبا عرقيا»، لأنه قريب من الديناريين، لكنه يقترب بقصر قامته ونعومة قسمات وجهه الأكبر من المتوسطيين»[42].

لا ندري إن كان نيدرماير قد أخذ على محمل الجد هذه الاستنتاجات النظرية العرقية، التي نشرتها عام 1950 أكاديمية العلوم والآداب في ماينز. إذا ما تأملنا الموضوع على أساس منطلقه البحثي المتعيَّن جغرافيا وتاريخيا، ملنا إلى الاعتقاد أن مسألة ما إذا كانت شعوب آسيا الوسطى تنتمي إلى خليط متنوع من تكوينات مونغولية وأوروبية أو هي أخلاف عرق خاص هو

42. إيلزهشفيديتسكي: دراسات طورانية 1950، ص 235 ـ 291 و 298.

الطوراني، كانت عديم الأهمية بالنسبة إلى الجنرال، الذي كان يرى أن «قرابات الأعراق الأوروبية عالية الرأس» كانت بلا أهمية بالنسبة إلى الاعتبارات السياسية.

لم يواجه نيدرماير المشكلات في نويهامر مع شرطة الدولة السرية وحدها، فقد كان لديه نقص في المترجمين والضباط العارفين باللغات، القادرين على تكوين صورة خاصة بهم عن مزاج الوحدات. إلا أن الفرقة كانت تفتقر قبل كل شيء إلى هدف سياسي مقنع يمكنه كسب ولاء الجنود. وقد اضطر نيدرماير يوم 31 آذار 1943 إلى الإقرار بأنه «لا يمكن تقديم هدف سياسي محدد إلى «المتطوعين»، لأن هذا ليس معروفا بعد، ولأنه لا توجد خطوط توجيهية واضحة من فوق. لذلك تعتبر نداءات قائد الفرقة مرجعية، وخاصة منها تلك التي لا تنقضها قيادة القوات المسلحة العليا والقيادة العليا للجيش، بما في ذلك النداءات التي يتم تحملها بصمت. في مسألة الهدف السياسي، من الضروري بمكان إبداء التحفظ اليوم أيضا تجاه «المتطوعين».

لكن الفرقة استغنت في مطلع صيف عام 1943 على أبعد تقدير عن «الخطوط التوجيهية الواضحة من فوق»، لأن هدف «حرب التحرير» من السيطرة السوفييتية كان منذ هذا الوقت مجرد وهم، بالنظر إلى تفاقم الوضع الحربي بالنسبة إلى الرايش الثالث، إذا ما تجاهلنا نجاحات دفاعية متفرقة في جنوب أوكرانيا. وقد سقط تسعون ألفا في الأسر في ستالينجراد، وقتل حوالي مائة وخمسون ألفا، بينما رأى التونسيون 160000 جندي ألماني وهم محشورون على جبهتين بين البريطانيين والأميركيين، وفشلت منتصف تموز عام 1943 في معركة الدبابات قرب كورسك المحاولة الألمانية الأخيرة لأخذ المبادرة مرة أخرى على الجبهة الشرقية، في حين كانت وحدات من القاصفات الأميركية والبريطانية تهاجم ليلياً مدن ألمانيا.

قرأ نيدرماير في صيف عام 1943 الحار مذكرات مصورة كتبها منافسه

الشاب أوبرلاندر، الأستاذ وقائد وحدة بيرجمان الخاصة، بتكليف من رئيس شعبة المكافحة كاناريس[43]، وكان يتم تداولها بين جنرالات الرايش الثالث وقياداته السياسية، وأبعد مؤلفها فيما بعد عن القوات المسلحة بإيعاز من هتلر. جعل أوبرلاندر عنوان مذكرته الأولى «تحالف أم استغلال»، وأرّخها في 22 حزيران 1943، يوم الذكرى الثانية للهجوم على الاتحاد السوفييتي. لم ينطلق حجاج المؤلف من الاشتراكية القومية، بل من الآفاق الأوروبية، شأنه في ذلك شأن نيدرماير وهاوسهوفر وكارل شميت. يقول الكاتي: «تخوض أوروبا القتال على جبهتين. ضد جبهة معادية للثقافة، تستند إلى كتل لا إرادة لها تخدم آلة الحرب البلشفية في الشرق، وجبهة حضارة أميركا الجماهيرية التقنية العملاقة في الغرب». لتفادي ورطة حرب الجبهتين الكونية، طالب أوبرلاندر بانفتاح أوروبا على الشرق: «لم تقرر المناطق التي تم تحريرها في الشرق بعد إن كانت ستختار الانتماء إلى أوروبا أو الاتحاد السوفييتي. إن انجذابها الحقيقي نحو أوروبا، وتوسع القارة الذي سيترتب على ذلك وحده إلى مجال كبير سياسي دولي قادر على المنافسة، يرتبط باختيار الشعوب المحررة الداخلي الطوعي». وقد وضع نيدرماير خطا تحت كلمة «طوعي».

نصح أوبرلاندر باستبدال سياسة النازية الإضطهادية والإبادية «بسياسة ثقافية واجتماعية إيجابية». وقد قرأ نيدرماير، الذي كان يعرف كخبير في شؤون روسيا الأعباء الجسدية والروحية التي تخضع لها نساء شرق أوروبا، الجملة التالية باهتمام: «إلى هذا، من الأهمية بمكان كسب النساء إلى جانبنا، فهن يتساوين غالبا مع الرجال في حيويتهن وقوة شكيمتهن، وقد صار لهن وزن خاص بسبب ظروف الحرب». كما وضع خطا تحت الفقرة

43. توجد المذكرة في تركة نيدرماير في الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري، تحت رقم 122/3.

التالية، التي تقول: «تتناقض تدابير كثيرة اتخذتها إدارة الشرق، وخاصة مفوضية الرايش في أوكرانيا، تناقضا حادا مع هذا الأمر الذي تفرضه الحنكة السياسية». أخيرا، فإن يضع خطا أحمرا مزدوجا على هامش الفقرة التالية: «أن مرسومه حول حماية الأمهات ورعاية الرضع، الذي صدر في تشرين الثاني 1942، ومرسومه بإغلاق المدارس (24 ـ 10 ـ 1942) هزَّا قناعة ملايين الأوكرانيين في ألمانيا، ودفع بالآلاف منهم إلى صفوف الأنصار. إن محاولة إضعاف شعب أوروبي متطور ومتمايز اجتماعيا من خلال دفعه إلى الفساد بالإكراه، ليست غير عبث لا طائل تحته، فهذه التدابير ليست غير وخزات إبر، ليس لها أثر مدمر على الشعوب المعنية، ولها مثل هذا الأثر في ما تحدثه من نتائج سياسية ضدنا». إلى هذا، وضع نيدرماير خطوطا تحت نقد «الدعاية لأهداف استيطانية لا نهاية لها» و«التلوث والفساد في صفوفنا». في نهاية النص، أبدى نيدرماير ملاحظة زودها بأرقام عربية وكتبها باللغة الفارسية. لقد أراد تشفير أفكاره الخاصة. كان نيدرماير يرى في هذا الوقت بوضوح أن كسب الحرب لم يعد ممكنا، وكان يجري مداولات مع ضباطه كتلك التي تجري في حلقات البحث الجامعية، وقد أمر في أواخر خريف عام 1942 بإلقاء محاضرة في ميروجورود عنوانها «إنجلترا وروسيا في الشرق الأدنى»، أعدها الحقوقي والمستشرق الشاب فون شوفينجن، الذي كان نيدرماير يعرف أبيه من الحرب العالمية الأولى، عندما كان يمارس التحريض ضد البريطانيين في الشرق بصفته ممثل ماكس فون أوبنهايم. والآن، وفي نهاية خريف عام 1942، تنبأ شوفينجن الشاب أن أميركا ـ وليس الرايش الثالث ـ هي التي «ستحتل مكان إنجلترا في الشرق الأدنى». وقد وافق نيدرماير بقوة عندما قال المحاضر إن الصراع سينفجر بعد الحرب العالمية الثانية بسرعة بين أميركا كقوة أنجلوساكسونية بحرية قائدة والاتحاد السوفييتي كقوة برية أوراسية رئيسة، وأضاف: «يجب توقع الشقاق بعد نهاية الحرب بين المتصارعين القديمين والحليفين غير الطبيعيين، ودخول الأميركيين إلى

المواقع البريطانية المزعزعة». لم يكن أحد يتحدث نهاية عام 1942 عن السياسة الألمانية في الشرقين الأدنى والأوسط في فرقة نيدرماير، وإن كان الأمل يراود منتسبيها في قيام سياسة مستقبلية أوروبية فاعلة تجاه الشرق الأدنى، لذلك تحدث المحاضر عن: «دخول مؤثر للنفوذ القاري الأوروبي المأمول في الشرق الأدنى»[44].

عايش نيدرماير وضباطه عام 1943 للمرة الأخيرة في سيليزيا طريقة عيش الأقاليم الألمانية الشرقية التقليدية، وسط سهل الأودر بحقوله المزروعة قمحا، ومرتفعات جبالها العملاقة التي تحيط بها هالة من الأساطير، ومدينة بريسلاو التي تضم جامعتها وأسقفيتها الغنيتين بالتقاليد، وحيث يقع على بعد ثلاثين كيلومترا من نويهامر قصر جروديتسبيرج، المسكن الذي يمضي هيربرت فون ديركسن شيخوخته فيه، وهو سفير متقاعد عرفه نيدرماير، مدير مركز جيش الرايش في موسكو، حين كان سفير ألمانيا هناك، ولعب معه التنس، وصحبه إلى رحلات تزلج على الجليد. والآن، كان نيدرماير يزور من حين لآخر صديق الرياضة في مقره الريفي ذي الموقع الرومانسي، مع أن تبادل الرأي معه لم يكن سهلا دوما: «لأن السيدة فون ديركسن كانت تهيمن على الحديث خلال تناول العشاء في قاعة الطعام الجميلة، وقد مالت بظهر مقعدها بعيدا إلى الخلف».

في آب من عام 1943 عرض فون ديركسن على أوتو هوتشس، راعي نيدرماير الأكاديمي، الانتقال إلى قصر جروديتسبيرج. لكن هوتشس بقي في برلين، حيث دمر مسكنه بقنابل ناسفة يوم 23 تشرين الثاني عام 1943. نجا هوتشس، غير أن أملاكه الشخصية، ومستنداته، ومكتبته الكبيرة احترقت جميعها.

---

44. كارل فون شوفينجن: «إنجلترا وروسيا في الشرق الأدنى». محاضرة ألقيت أمام ضباط وموظفي فرقة المشاة 162 عام 1942. مخطوط مصور.

تحدث ديركسن ونيدرماير في عزلة قصر جروديتسبيرج عن زمنهما المشترك في موسكو وعن الحرب. وعلى عكس غيره من القادة العسكريين رفيعي الرتب، الذين كانوا يزورون صاحب القصر، كان نيدرماير ينتقد بصراحة استراتيجية هتلر تجاه روسيا وسياسته الشرقية، التي كان جنونها الإجرامي يدفعه إلى اليأس. وقد قال ديركسن في مذكراته التي ظهرت عام 1951 في لندن إن «نيدرماير بقي بافاريا، وأفصح عن مكنونات نفسه بصراحة وحسم، ولم يخف إدانته لجنون سياسة واستراتيجية هتلر الإجراميتين، وكان مستاء من الجرائم التي يرتكبها الحزب والـ إس إس في روسيا»[45].

كان ضباط نيدرماير يزورون في أوقات فراغهم الأملاك والمقرات الزراعية في الدائرة المحيطة بمكان تدريب قواتهم. وعندما قرر مرافقه الزواج رغم الحرب من ابنة أحد ملاك الأراضي، كان نيدرماير شاهد زواجه، كما شاركت زوجته، التي كان ضباطه يسمونها «الأميرة» في العرس، وكان نيدرماير قد أحضرها مطلع عام 1943 إلى نويهامر، لأنها كانت متوترة وعصبية بسبب ليالي القنابل في برلين.

هنأ نيدرماير يوم 23 آب عام 1943 كارل هاوسهوفر بمناسبة عيد ميلاده الرابع والسبعين، لكنه قرن تهانيه بكلمات جدية وجهها إلى صديقه: «أتمنى لك الصحة والقدرة على المقاومة، لأن بهما وحدهما يستطيع المرء تجاوز هموم زماننا الحالي. إنه لأمر قاس أن نجد أنفسنا مجبرين في نهاية مثل هذه الحياة والأعمال على اكتشاف أننا لم ننجح في فرض وجهات نظرنا حيث كان يجب أن تفرض. وهذا ما يجب أن يحرك مشاعرك أنت بصورة خاصة، لأنه كانت لديه علاقات أفضل من علاقاتي، وتتمتع اليوم بصيت محزن هو أن حكمك على روسيا كان صحيحا». ثم وصف نيدرماير وضعه الخاص باختصار: «لا أشكو من جانبي كثيرا، فأنا استمر في توسيع فرقتي تحت

45. هيربرت فون ديركسن: موسكو ـ طوكيو ـ لندن. ص 256.

ظروف تزداد صعوبة، وأجد في هذا فرحتي وسعادتي. وليس لدي غير رغبة واحدة هي القتال على الجبهة وأن أكون جنديا فقط». في نهاية الرسالة، يطرح نيدرماير سؤالا كان يعرف أنه سيؤلم هاوسهوفر: «هل صحيح أن رودلف هيس مات مشلولا في كندا؟»[46].

كتب نيدرماير بعد بعض الوقت، في 6 أيلول 1943، إلى زميله ورفيق أحاديثه في برلين كارل شميت يقول: «لم آت منذ وقت طويل إلى برلين. وقد طلبت قبل أسابيع من زوجتي، التي كانت في حالة معنوية منهارة، أن تغادرها . . . لكن مكتبتي وأوراقي وصور جميع رحلاتي وإقاماتي في الخارج بقيت هناك، وستكون بالتأكيد نهبا للنيران في زمن غير بعيد». أما من الناحية العسكرية، فلم يعد نيدرماير يهتم بغير الصمود على الجبهات وكسب الوقت: «لقد فكر أعداؤنا بقهرنا من خلال هجومهم العام، لأنهم استهانوا بقدرتنا على المقاومة. تعاني روسيا بشدة من خسائرها ومن الحرب، وليس هناك ما يشير إلى أن الجبهة لن تصمد حتى قدوم المناخ السئ. ويصعب جدا كذلك إحداث أي تأثير حاسم عبر إيطاليا، بينما يصير وضع البلقان أكثر إثارة للقلق بكثير. وبالمناسبة، فإن الحرب الجوية وحرب الأنصار هي وسائل عسكرية بيد العدو، فاعلة إلى درجة غير عادية، لطالما أخفقنا في تكوين حكم صائب عليها. ماذا يبقى لنا في وضع كهذا غير الصمود دون مراعاة الخسائر، كي لا نضيع»[47].

غادر نيدرماير وفرقته سيليزيا بعد وقت قصير، فذهبت زوجته إلى باساو، حيث يعيش شقيقه فريتز. هناك، وصلتها رسالة من كارل شميت تحمل نبأ دمار بيته في داهلم خلال غارة جوية. وقد ردت عليها يوم 2 تشرين الأول عام 1943: «أرسل زوجي لي قبل انتقاله من نويهامر رسالتكم

46. رسالة إلى هاوسهوفر بتاريخ 23 آب 1943 في تركة الأخير.
47. الرسالة في تركة كارل شميت.

التي تحمل نبأ مزعجا إلى أبعد حد هو دمار بيتكم الجميل في داهلم». وكانت السيدة التي لم ترزق بأطفال قد جعلت من قلبها سكنا لابنة شميت ووجدت أن «من حسن الطالع أن أنيما لم تشهد ما وقع». ثم تخبر عن ذهاب زوجها إلى الجبهة: «لن يكون مسرورا بذلك، وفي النهاية فإن هذه الحرب كلها لم تعد شريفة، لذلك ليس مهما أين يكون منها. وإنني لسعيدة لأنه لن يمضي الشتاء في روسيا، وأتمنى أن يعيده الله سالما من هناك»[48].

القتال في سلوفينيا

ازداد وضع الرايش الألماني العسكري سوءا في آخر صيف ومطلع خريف عام 1943، فقد طلبت إيطاليا وقف إطلاق النار من القوى الغربية في بداية شهر أيلول من العام ذاته، وفي الشرق تراجعت القوات الألمانية على سائر الجبهات، وضاعت كييف وأوكرانيا بأسرها تقريبا، وانتهى زمن التدريب في نويهامر بالنسبة إلى نيدرماير وفرقته، التي كان ثمة حاجة إليها في البلقان، بعد انهيار الحليف الإيطالي.

أصدر قائد المنطقة العسكرية الثامنة في بريسلاو يوم 29 أيلول أمرا يوميا باللغتين الألمانية والروسية يقول: «ستخرج فرقة المشاة 162 (ترك) من مجال إمرتي، بعد أن أمضت أكثر من سبعة أشهر في نويهامر. ومع أن تشكيل وتدريب الفرقة قد تسببا بصعوبات من نمط خاص ترجع إلى تكوينها، فإنه تم التغلب على هذه المصاعب بطريقة تمثل أفضل شهادة لقيادتها». ينتهي الأمر اليومي بنداء غريب إلى أعضاء الفرقة يطلب إليهم أن لا يقاتلوا من أجل حريتهم الخاصة، بل من أجل قارة أجنبية: «من أجل أوروبا جديدة! عاش الفوهرر!»[49].

48. رسالة بيرتا فون نيدرماير إلى كارل شميت في تركته.
49. في تركة نيدرماير.

كتب قائد المنطقة العسكرية الثامنة تقويما حول نيدرماير في الأول من أيلول 1943[50]، يمتدح فيه إنجازاته التدريبية ومعرفته بشعوب الشرق. أما كاتب التقويم الثاني العماد فروم، آمر جيش الاحتياط، فلاحظ ناقدا: «أن سلوكه الشخصي، كما هو معروف عندي من فترة سابقة، لم يكن دوما تحت أضواء ملائمة». هل كان هذا إشارة إلى دعوى القدح والذم التي رفعها فون هانتيج؟. مهما يكن من أمر، فإن فروم، الذي أعلمه رئيس أركانه فون شتاوفنبرج بخطط اغتيال هتلر، فأمر يوم 20 تموز من عام 1944 باعتقاله وإعدامه رميا بالرصاص، لكنه أعدم هو نفسه شنقا يوم 12 آذار 1945 بتهمة كتمان معلومات.

كانت أوروبا الجديدة، التي أريد لجنود نيدرماير القتال من أجلها، على الطريق لأن تصير تكوينا متنوع القوميات والإتنيات يتشكل بالإكراه تحت قيادة نازية. بعد أن أخلت فرقة نيدرماير نويهامر كموقع تدريب، حلت محلها وحدة إسلامية أخرى بقيادة ألمانية هي «فرقة الـ إس إس السكين»، التي تم تجنيد أعضائها في البوسنة، وحين تمردوا في فرنسا صدر الأمر بنقلهم إلى نويهامر[51]، حيث كان عليها أن تجمع خلال التدريب، وفق تصور هملر، التقليد العسكري للألوية الملكية والقيصرية النمساوية وإرادة القتال المتزمتة لدى مجاهدي الإسلام.

بينما دخلت فرقة السكين وهي ترتدي بذة الـ إس إس والطربوش التركي إلى أحياء نويهامر، كانت فرقة نيدرماير تنتقل بين 27 و 29 أيلول عام 1943 بالقطار من سيليزيا عبر ميهرن إلى فيينا ومن هناك عبر الساميرنج وكلاجنفورت وفيلاخ إلى أودينه الإيطالية[52]. انطلاق من هنا، حمت الفرقة

50. الارشيف القومي، ر ج 242 ت 78.
51. انظر جورج ليبير: فرقة هيملر البوسنية 1939 ـ 1945. الجزء 9 أوسنابروك 1987، ص 58 ـ 76.
52. حول نقل الفرقة، انظر تركة نيدرماير في الأرشيف الإتحادي ـ الأرشيف العسكري.

خطوط السكك الحديدية من فينيسيا وسلوفينيا إلى منطقة الرايش. ثم نشطت منذ منتصف تشرين الأول وحتى آذار في مكافحة الأنصار، وخاضت بين 11 و12 كانون الأول اشتباكات مع وحداتهم قرب جوتشه ورودلف فيرت، جزيرتي الاستيطان الألمانيتين في سلوفينيا[53].

في العاشر من كانون الأول عام 1943 طوّقت وحدة أنصار متفوقة عدديا قرابة مائة وخمسين شرطي ألماني يساندهم مائة سلوفيني في جوتشه. في اليوم التالي، ساء وضع المحاصرين بسرعة، وانسحب الألمان وحلفاؤهم السلوفينيون إلى قصر البلدة وقد جرح سبعون واحدا منهم. رفض القائد الألماني عرضا بالاستسلام يضمن انسحابا ألمانيا حرا مقابل التخلي عن السلوفينيين. ومع أن طائرة يو88 كانت تلقي ذخائر إلى المحاصرين، فإن سوء الأحوال المناخية حال دون تقديم دعم جوي لهم. في مساء 11 كانون الأول وصل اللواء 314 من الفرقة 162 مشاة، الذي أرسل لفك الطوق، بعد مقاومة ضعيفة من العدو ومواجهة عقبات وموانع مختلفة، إلى موقع يبعد 18 كيلومترا من جوتشه. ثم استؤنف التقدم في الصباح التالي إلى أن تم فك الطوق ظهيرة يوم 12 كانون الأول بقوة اللواء 314 ولواء شرطة ودعم الطيران. كان القتال قصيرا لكنه عنيفا، كما تبين الصور الملتقطة، وتم غنم مدفعين و24 رشاشا وأعداد كبيرة من الأسلحة اليدوية وستة أحصنة وبغال وكذلك ذخائر، بينما قتل جميع الأسرى، ولاحقت قوى محدودة الأنصار الذين فروا جنوبا.

قاد نيدرماير قواته بنفسه قرب جوتشه، يرافقه قائد الفرسان هانس فون هيرفارت. وقد أهدى إلى «قائد الفرسان في الأركان العامة» ألبوم صور،

53. حول عمليات الفرقة 162 في سلوفينيا، انظر كورت ميتسجر: التقارير اليومية السرية لقيادة قوات ألمانيا المسلحة في الحرب العالمية الثانية 1939 ـ 1945، الجزء 9 اوسنابروك 1987، ص 58 ـ 76.

وهو يعرف حق المعرفة أنه لا يوجد قادة فرسان في الأركان العامة. وبما أن نيدرماير نفسه لم يكن قد مر بدورة تعليمية في الأركان العامة، فإن لغمزته معنى مزدوجا. تظهر صور فون هيرفارت القسوة والعناد الذين طبعا «الحرب الصغيرة» في البلقان بطابعهما.

اجتازت فرقة نيدرماير معمودية النار خلال قتالها في سلوفينيا. وبعد أن استقر الوضع في فينيسيا وسلوفينيا خلال الشتاء، أمضى الضباط الألمان بعض أيام الإجازة في البندقية، وسكنوا في الفنادق على الليدو، وزاروا الأماكن التي تستحق المشاهدة في المدينة. إلا أنه كانت هناك أيضا اشتباكات جدية، فقد حدثت تعديات على السكان المدنيين في منطقة انتشار الفرقة، اغتصب خلالها جنود أوزبيك نسوة سلوفينيات. كما تزايد عدد الفارين، حتى بلغ حوالي 300 جندي في فترة الأشهر الستة التي تلت مغادرة نويهايمر، فر جزء منهم بسبب دعاية الأنصار البارعة، كما وجب على نيدرماير نفسه أن يعترف[54].

أخذ نيدرماير يوم 11 كانون الثاني استراحته الأولى خلال الحرب العالمية الثانية وأمضاها مع زوجته متزلجا على الثلج في سانت انطون على جبل آل. وقد أبقى سائقه وسيارته الرسمية قريبين منه، ليتمكن عند الضرورة من بلوغ مجموعة جيشه خلال ست ساعات. كانت المنطقة التي تحميها فرقته كبيرة، وكان يمكن أن تنشأ فيها أوضاع حرجة في أي وقت. شكر نيدرماير هاوسهوفر من سانت أنطون على مراجعة كتابه «الجغرافيا العسكرية» في مجلة «أنباء بيترسمان» المتخصصة الرائدة[55]. وكان هاوسهوفر قد خفف في المراجعة نقد نيدرماير لسياسة هتلر الروسية، وقال: «تنتمي جغرافية

54. هذا ما قاله نيدرماير خلال استجوابه عند قاضي مجموعة الجيش في القيادة العليا غرب يوم 28 أيلول 1944. المحضر في تركة الأستاذ الدكتور أرتور كون.

55. توجد رسالة نيدرماير في تركة هاوسهوفر. الأرشيف الاتحادي.

نيدرماير العسكرية إلى الكتب النادرة، التي يجب على موجهي الدول وقادة الجيوش قراءتها، قبل اتخاذ قرارات خطيرة الأبعاد. أما الوقت الذي وظف فيها فهو لم يذهب سدى، فهي تحقن الدماء، وتبعد الأخطار وتحفظ الأرض، وتخلو من الأخطاء في مسائل مهمة حياتيا، التي يمكن أن يقع فيها بطبيعة الحال جغرافي يعمل داخل غرف دراسية مغلقة».

ربط نيدرماير كلمات الشكر إلى صديقه بذكرى تحذيرية: «أنت تعرف اليوم بدورك أن كلمات «تأخر كثيرا» تصلح لهذا الكتاب أيضا». ثم ناقش فكرة ما إذا كان قد فعل ما يكفي لاتقاء الكارثة، وقال: «أسأل نفسي بصورة متكررة، ما إذا كان علي أن أحذر بإلحاح أكبر». قبل أن يؤكد محبطا: «لكنني خاطرت بما فيه الكفاية (!). فضلا عن أنني كنت قليل الشأن، ولم يكن لي غير القليل من الوزن. عندما سألني العماد فون ماكنسن قبل بضعة أيام، إذا كنت أريد تقديم محاضرة أمام الفوهرر ذات مرة، وقال إنه يؤيد هذا ويريد التوسط فيه، رجوته أن يغض النظر عن الموضوع».

بعد المعارك الناجحة مع الأنصار، شعر نيدرماير نفسه «قويا جسديا كما في أحسن أوقاتي، حتى أنني قدت بعض الهجمات وأنا في الخطوط الأولى (جوتشه، رودولفس فيرت)». لكنه أحس أن عمله، «هذه الولادة الجديدة العسكرية الصرف»،لم يكن غير ابتعاد عن «أشياء فكرية غدت ذميمة وعقيمة». وأخيرا، ألقى نظرة مظلمة على الحاضر والماضي والمستقبل، قبل أن ينهي رسالته بملاحظة تشي بالإحباط: «سيكون ربما من حسن الحظ أن لا أضطر إطلاقا إلى معالجة تجاربي خلال السنوات الأخيرة فكريا ومعرفيا، ونقلها إلى الآخرين».

الفشل في إيطاليا

تقدم الأميركيون والبريطانيون بعد أيام قليلة، في كانون الثاني من عام 1944، من جنوب إيطاليا إلى الشمال. وكان من الضروري أخذ تقدم آخر

بالحسبان، ستقوم به قوات الحلفاء المتفوقة عددا وعدة. لتعزيز الجبهة، تم بين 24 و27 آذار عام 1944 نقل نيدرماير وفرقته بالقطار من أودينه إلى شاطئ المتوسط الإيطالي جنوب ليفورنو، حيث قامت الوحدة أول الأمر بمهام حماية، ثم زرع جنوده الآسيويون ألغاما على شواطئ التوسكانا، في مناخ ربيعي رائع.

قام رؤساء نيدرماير بإبداء آرائهم فيه قبل انتقال فرقته[56]، فاعتبره الجنرال كوبلر، آمر منطقة عمليات تريست، يوم 5 آذار 1944 «قويا كل القوة من الناحية الجسدية، ويتمتع بمران وحراك فكري، لكنه أيضا» قابل للتكيف ومطواع. لم يكن نيدرماير خوافا على الصعيد الشخصي، لكنه كان متعجرفا أيضا: «فهو محنط، لكنه ميال إلى الإسهاب في الكلام والكتابة». كان صاحب التقويم راغبا في إصدار حكم متوازن يليق ببناء وتدريب الفرقة 162 (ترك): «وقد كرس نفسه بنجاح لافت جدا لهذه المهمة بشغف داخلي عظيم تدعمه في ذلك تجاربه الاستثنائية مع شعوب الشرق. الخلاصة: معرفة بشعوب الشرق ولغاتها. تكتيكيا متأرجح. وسطيا، يترك في مكانه».

أما صاحب التقويم الثاني، آمر مجموعة الجيش الجنرال فون تسانجن، فقد أبدى ملاحظات نقدية: «موافق عموما. يحتاج إلى دليل في القيادة التكتيكية، تنقصه الخبرة العملية كقائد قوات. عاش خيبات قوية على الصعيد التربوي في فرقته، يمكن أن تثير شكوكا قوية في نهجه، رغم معرفته بشعوب الشرق». بذلك ألمح الجنرال إلى مشكلات الانضباط والاغتصابات والفرار، التي عرفتها الفرقة. وأضاف الجنرال المارشال الميداني فون كيسلرنج، آمر الجنوب الغربي: «بعد إخراج الفرقة من منطقة العصابات الهستيرية، يجب انتظار تحقيق نجاحات تربوية وعسكرية، قبل إصدار حكم نهائي».

56. توجد تقويماتهم في الأرشيف القومي تحت رقم ر ج 242 ت 78.

كان كيسلرنج بافارياً كنيدماير، وكان قوي الإرادة، واثقا من نفسه، وقادرا على تحقيق ما يريد. وقد تلقى الرجلان تدريبهما في الجيش الملكي البافاري، وعاشا انفجار الحرب العالمية الأولى كملازمين أولين شابين في لواء المدفعية. ويمكن أن يكونا قد التقيا خلال الخدمة مثلما يمكن أن يكون قد حدث بينهما لقاء في أيار من عام 1919، عندما قاتل الاثنان ضد المنتفضين الشيوعيين في نورنبرج. لئن كان الرجلان قد التقيا في وقت سابق، فهذا يعني أن لقاءهما لم يتسم بالانسجام، لأن كيسلرنج أيد استبدال نيدرماير، ورأى أن فرقته لا تساوي شيئا، وكان يريد استخدامها لمكافحة الأنصار فقط، لاعتقاده أن «الفرقة التركمانية» تفتقر إلى المستوى التدريب والقيمة القتالية، الكافية لتلبية متطلبات القتال على الجبهة[57].

أرسل كيسلرنج رسالة هاتفية إلى برلين يوم 29 نيسان 1944، تتضمن تقويما إضافيا لنيدرماير، كتبه هذه المرة جنرال المشاة دوستلر: «التأهيل العام فوق المتوسط. إلا أنه مع ذلك رجل علم أكثر مما هو قائد قوات. يفتقر إلى الخبرة في المسائل التكتيكية، ليس لديه خط واضح في قيادة الفرقة، يرى المصاعب حيث لا توجد، ويستخدم الكثير من الكلمات عوض أن يعمل. كثير التردد عند اتخاذ قرار، وعديم الحنكة وبطئ عند إصدار أمر، اعتبره غير مؤهل لقيادة فرقة، خاصة في قطاع ليفورنو».

أرفق كيسلرنج بهذه الرسالة تقويما تكميليا كتبه آمر مجموعة الجيش فون تسانجن: «تنقصه الخبرة العملية في تدريب وقيادة وحدة كبيرة. وليس مؤكدا أنه يستطيع، حسب الصورة الموجودة عنه، قيادة إحدى الفرق بنجاح في الحرب». أخيرا، ختم كيسلرنج: «إن اللواء نيدرماير هو شخصية، لكنه يفتقر مع ذلك إلى التأهيل الأساس الذي يجعله مؤهلا لأن يكون قائدا

57. انظر كيسلرنج: الحرب وراء الجبهة: حرب العصابات. الأرشيف القومي، م س ـ ث 032، ص 15.

أعلى. ومع الاعتراف بإنجازه العام وقيمه الشخصية المتفوقة، أعتقد أن تغيير قيادة الفرقة ضروري إلى أبعد حد».

عندما تمت مفاتحة نيدرماير بالتقويم يوم 6 أيار 1944، اتصل للتو بقيادة القوات المسلحة العليا، وتلقى كيسلرنج يوم 13 آب رسالة تقول: «بعد مداولة مع الفيلد مارشال كايتل، أسمح لنفسي بالعودة إلى مسألة الاستمرار في استخدام اللواء فون نيدرماير، الذي اعتبر حتى الآن افضل من ربّى الجنود ذوي المنبت الشرقي، وهو ما أكده الآن الجنرال كوسترينج. سيكون من الصعب جدا إيجاد شخصية تستطيع التغلغل داخل طبائع هؤلاء الترك، وأن تكون في الوقت نفسه ضابطا على درجة رفيعة من القدرة لقيادة الفرقة. بمراعاة هذه الأفكار، أرجو أن تفحصوا مرة أخرى ما إذا كان بالإمكان إبقاء نيدرماير حيث هو الآن، إذا ما وضع إلى جانبه ضابط أركان رفيع المؤهلات». لكن كيسلرنج أصر على موقفه، فاستبدل نيدرماير كقائد فرقة، وحل محله اللواء القدير فون هايجندورف، وأرسل بدءا من 21 أيار 1944 كقائد للقوات المحلية المخصصة «للاستخدامات الخاصة» لدى الآمر الأعلى للقطاع غرب.

في التاسع من حزيران 1944 سارت الفرقة بمحاذاة الشاطئ الليجوري في منطقة عملياتها قرب اوربيتيللو. وكان قطاعها يمتد من أنسيدونيا بخط مستقيم نحو الشرق حتى بونتو ديل آباديو، حيث وقع الهجوم الرئيس للجيش الأميركي الخامس الزاحف شمالا، الذي لم تكن الفرقة قادرة على الصمود في وجهه، فتم يوم 15 حزيران سحبها إلى خط يقع شمال جروسيتو، تراجعت منه دون توقف نحو الشمال، إلى أن أخرجت من الجبهة يوم 28 حزيران في منطقة تقع غرب مونتيشيانو، وتجمعت بقايا الفرقة شمال غرب فولتيرا، ثم سارت عبر لوكا وبيستويا إلى منطقة قتال جديدة تقع إلى الشمال والجنوب من رميني في اتجاه أدريا.

ساد الشعور بأن تراجع الفرقة يعتبر فشلا لها. ومع ذلك، فإن وحدات

الجيش الخامس، التي كانت تتقدم يحالفها الظفر، كانت تتكون في معظمها من تكساسيين متفوقين شخصيا وماديا، لديهم دعم جوي دائم ويقاتلون بشراسة خاصة ضد الآسيويين من جنود القوات المسلحة الألمانية، الذي حسبوهم أول الأمر يابانيين. لذلك من الضروري رؤية قدرات الفرقة 162 ـ ترك ـ بأعين صاحية، لا سيما وأن جنودها قاتلوا لأسباب مختلفة عن تلك التي قاتل في سبيلها الجنود الألمان، وأن معظمهم انتسبوا إلى الجيش الألماني ليتخلصوا من بؤس معسكرات الأسرى في أوكرانيا. وإذا كانوا قد شعورا بولاء جديد، فقد كان ولاؤهم لرؤسائهم، وخاصة منهم قائد الفرقة: «اتضح أكثر فأكثر بمرور الوقت أن وحدات المتطوعين يجب أن تقاد كما كانت تقاد «الفيالق الحرة»، وأنه ليس من الحكمة اجترار بعض المثل أمامها، لأن هذا كان غير مجد وغير قادر على كسبهم. عوضا عن ذلك، كان يجب أن يقسموا يمين الولاء لشخص قائدهم، وأن يشعروا على الدوام برعاية واهتمام رؤسائهم، وباحترام ورفاقية زملائهم الألمان. عندئذ، كانت الأمور تسير سيرا حسنا. إن مشكلة القيادة في وحدات الفرقة التركية هي مشكلة شخصية القائد، مثلما هي على الأرجح في وحدات المتطوعين عموما»[58].

بما أن نيدرماير استبدل قبل استخدام الفرقة على الجبهة، فإن تراجعها المشين في حزيران 1944 لا يجوز أن يحجب عنا حقيقة أنها كانت بوجه عام ناجحة عسكريا إلى تلك اللحظة وفيما بعد. وتظهر مذكرة حول استخدامها خلال شهر أيلول من عام 1944 في منطقة شبينا إلى الشمال من ريشيوني أن وحدات مدفعيتها أثبتت جدارتها في القتال، فقد أوقفوا يوم 13 أيلول بمعونة من المظليين الألمان تقدم قوات مشاة بريطانية قوية معززة بالدبابات، وأجبروها على التخلي عن أراضي كانت قد استولت عليها.

58. د. هانس جونتر سيرافيم: المتطوعون القوقازيون وذوي الأصول التركية في الجيش الألماني. الأرشيف القومي م س ـ ث 043 ن.

الانهيار في الغرب

كانت باريس تفتقر إلى الكهرباء والغاز في أيار من عام 1944، وهي تنتظر بتوتر الإنزال المظلي الحليف الوشيك، بينما كان يسود سكون مركّز في هيئات الأركان الألمانية. في 12 أيار شارك الكاتب ومقدم الاحتياط إرنست يونجر في محادثة حول استخدام أفواج قوقازية في فرنسا، كان مقررا أن يتولى هو الإشراف عليها: «إنه عمل ممل ومحزن، تولى جانبها التقني بحمد الله خبراء الشرق من جماعة الجنرال فون نيدرماير، الذين جندوا كتلا هائلة من أسرى الحرب. ما أن ينزل هؤلاء في المنطقة المحتلة، حتى توجد أنواع مختلفة من التعديات، تسجل بطبيعة الحال في رصيدنا».

تذكر يورجن أنشطة نيدرماير خلال الحرب العالمية الأولى في أفغانستان وفارس. وكان قد شاهد أثناء إقامة له في القوقاز في خريف عام 1942 صورا تبين نيدرماير بين مئات الآسيويين. سجل يونجر ملاحظات حول ردود أفعال الباريسيين عام 1944 على القوقازنيين الكثيرين وجنود آسيا الوسطى وهم في ثياب الجيش الألماني، وأكد: «لا تخضع مثل هذه الوحدات لأي معيار مألوف، وكان وجودها ضربا من الاستحالة لولا القوة الاستبدادية. من هنا، تظهر بين الضباط نماذج جديدة في جنسها، بل أن نيدرماير نفسه غريب بدرجة كبيرة»[59].

وقف يونجر في نهاية أيار عام 1944 في ميدان تدريب شمال فرنسا وسط مربع مفتوح من جنود قوقازيين ومن آسيا الوسطى. كانت شارات غريبة تشع على بذاتهم العسكرية الألمانية، هي مسجد له مئذنتان وكتابة تقول «بيز أللّه بيلن. تركستان». أما قادة الأفواج الشرقية الألمان فكانوا في نظر يونجر صلة الوصل الحديثة بين قادة المرتزقة وتقنيي السلطة: «لا يوجد محكمة حرب، بل قرر القادة كل ما يتعلق بالحياة والموت. من جهة

59. إرنست يونجر: إشعاعات. دفتر يوميات باريس الثاني. شتورتجارت 1965، ص 256.

أخرى، كان عليهم مراعاة مسألة جدية هي أنهم قد يُقتلون وضباطهم، إذا ما فر جنودهم». بينما كان القادة يحتسون الفودكا مع قادة كتائبهم، كان القوقازيون وأبناء آسيا الوسطى يقعدون طيلة ساعات على الأرض، وقد شكّلوا حلقة واسعة. أما رتابة أغانيهم فكان يكسرها الراقصون منهم، الذين كانوا يقفزون إلى وسط الحلقة ويرقصون حتى الإعياء.

وصلت الكتلة الأكبر من وحدات المتطوعين إلى أماكن القتال المخصصة لها على جبهة الأطلسي في الأشهر الأولى من عام 1944. وكان قد تم نقل 72 فوجا إلى فرنسا، استقبلهم معظم قادة الوحدات الألمانية بالرفض، خاصة وأنهم كانوا لا يعرفون أي شيء تقريبا عن وجود هذه الوحدات العجيبة. كانت الأفواج الشرقية الحديثة الوصول تعتبر غير موثوقة، بل وخطرة. لكن نيدرماير، الذي تولى بعد نقله من إيطاليا قيادة وحدات المتطوعين لدى الآمر الأعلى لقطاع الغرب، لم يكن مكلفا بقيادة هذه الوحدات أثناء القتال، لأنها لم تستخدم كوحدات مستقلة، بل دمجت في الألوية الألمانية.

وصل نيدرماير إلى باريس يوم 15 حزيران عام 1944[60]. قبل تسعة أيام، في السادس من حزيران، كان الأميركيون قد نفذوا إنزالهم في النورماندي بين شيربورج وكاين. كان الوضع متوترا وغامضا، لكن الجبهة الألمانية كانت لا تزال صامدة. قابل نيدرماير بعد ظهر يوم وصوله لأول مرة العقيد هانسن، الذي كتب في الفترة التالية يوميات دقيقة حول مصير قائده. عندما أخبره هانسن أن الفوج الجورجي 797 قد جرد للتو من سلاحه لأنه غير موثوق، أعلمه نيدرماير أنه ميال إلى وحدات المتطوعين الروس، فأخذ رجال أركانه الجديد يلقبونه منذ تلك الواقعة «الروسي العتيق».

60. سيتبع عرضنا من هذه النقطة يوميات العقيد فالتر هانسن. انظر الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري.

لاحظ الحلفاء بدهشة أن هناك جنودا غير ألمان يواجهونهم في قتال النورماندي. هكذا علقت جريدة «الأوبزرفر» البريطانية يوم 18 حزيران قائلة إن الحرب غيرت طابعها القومي والأيديولوجي، وتحولت إلى صراع تخوضه جيوش متعددة القومية. كانت وحدات أوراسية تقف في مواجهة قوات الإنزال: «إن الجيش الذي نواجهه اليوم في المعركة الثانية حول فرنسا ليس ألمانياً إلا بدرجة محدودة. إنه في تركيبه جيش متعدد القومية، مثلما هو جيش الحلفاء في إيطاليا، وكتائب تيتو الأممية، ووحدات الحماية الألمانية، التي تقاتل مع هذه الوحدات. لذلك كان بين الجنود الأسرى في النورماندي روس وبولونيون وتشيكيون وكرواتيون بأعداد كبيرة وكذلك بعض الفرنسيين والإسبان وحتى الأتراك». وقد قدر البريطانيون القسم الأجنبي من الجيش الألماني في فرنسا بما يتراوح بين 15 و 20 بالمائة وسجلوا بدهشة أن الوحدات الأجنبية قاتلت بشراسة وصلابة لم تكن أقل مطلقا من صلابة الوحدات الألمانية.

قال التعليق البريطاني إن صراعا أيديولوجيا بين الديموقراطية والاشتراكية كان يجري تحت السطح الظاهري للحرب، وبهذا المعنى فإن الألمان والقوات الأجنبية التي ساندتهم كانا يقاتلان إلى جانب الاشتراكية، علما بأن الجانب الحليف كان يجهل الوضع النفسي والسياسي للأفواج الشرقية، لذلك كانت مكبرات الصوت الأميركية تطالبهم بالاستسلام، وربطت هذا بإعلان يجزي الفارين من صفوف الألمان بإعادة فورية ستتم بأسرع الطرق إلى أوطانهم!. لئن كان هناك من سبب دفع أفواج الشرق إلى القتال مع الألمان، فهو معرفتها بما ينتظرها في الاتحاد السوفييتي على يد ستالين.

من جانبها، قلقت «جريدة سويسرا المصورة» يوم 13 تموز 1944 على مصير «الروس الموجودين في الغرب»[61]، فقد بدت لها النسبة المئوية

61. انظر مذكرة كارل فون شوفينجن حول هذا الموضوع، التي صادرها الأميركيون بعد نهاية الحرب، وكانت بين آخر الوثائق التي أعادتها واشنطن إلى ألمانيا.

للقوات غير الألمان في فرنسا «مرتفعة إلى درجة غريبة». وعلى كل حال، فإن تماساكها تلاشى بعد الأسر وانفجر الحقد بين القوميات من جديد: «هؤلاء الروس والتشيك والبولونيون ليس من السهل أن يفروا، لأن لديهم إيمانا خرافيا بـ«السادة الألمان»، وهم يقاتلون في بعض الأحيان بتعصب أعمى على الجبهة، ويبدون في القتال ضد الجيش السري الفرنسي العمل المميز لوحدات الحراسة نصف المنغولية».

إلا أن علامات التفكك تكاثرت في الأفواج الشرقية تحت ضغط القوة الحليفة المتفوقة، في هذا الوضع سافر نيدرماير يوم 24 حزيران 1944 إلى الجبهة، وعاد يوم 6 تموز إلى باريس، بعد أن حاول جمع الأفواج الروسية في وحدات قتالية أكبر، تنفيذا لاقتراح صدر عن العقيد الروسي بونياتشنكو، الذي شنق بعد عامين، أي في آب 1946، مع الجنرال فلاسوف في موسكو. وكان قد حاول تنظيم انتفاضة ضد الألمان يقوم بها المتطوعون الروس في أيام الحرب الأخيرة، ليتمكن من إنقاذ نفسه عبر مفاوضات يجريها مع القوى الغربية. ويحتمل أن يكون اقتراحه إلى نيدرماير بتكوين وحدات قتالية روسية أكبر قد تطابق مع حسابات الجنرال الألماني في صيف ذلك العام.

استأنف نيدرماير بين 19 و21 تموز من عام 1944 محادثاته في باريس مع بونياتشنكو حول استخدام وقيادة وحدات المتطوعين الروس، وشارك في المحادثات الجنرال ماليشين ورائد اسمه كولتشانوف. وقد شكا الروس من معاملة الكادر القيادي الألماني وعبروا عن شكهم في أنه تتم التضحية بالروس بوصفهم «طعاما للمدافع». كانت إمكانات العمل محدودة جدا بالنسبة إلى نيدرماير، لأنه لم يملك سلطة الأمر على الألوية الألمانية، التي ألحقت بها الأفواج الروسية. لذلك لم يكن يستطيع عمل شيء غير محاولة تهدئة الروس وإبداء التفهم تجاه وضعهم، والوعد بتقديم العون وبتحسين الظروف. بيد أن بونياتشنكو والضابطين الروسيين الآخرين لم يكونوا سعداء بذلك.

بعد أيام قليلة، وخلال بعد ظهر يوم 24 تموز 1944، تحدث يونجر مع نيدرماير وشعر أنه يتذكر بطريقة غير محددة المستشرق النمساوي هامر ـ بورجشتال: «أعني الطريقة التي يقدر بها الشرقي، الآسيوي أن يتغلغل في إنسان، في أفكاره، وأفعاله وحتى في لونه الخارجي»[62]. في هذه الأيام كان الأميركيون قد وصلوا إلى بيزا، وكان الروس في لامبرج ولوبلين. وبعد يوم، في 25 تموز 1944 اخترق الحلفاء المواقع الألمانية قرب افرانش في النورماندي، وصار تقدم الدبابات الأميركية إلى العاصمة الفرنسية من الآن فصاعدا مسألة أسابيع وربما أيام قليلة فقط.

في السادس من آب 1944، وبينما الحلفاء يسددون ضرباتهم في شمال غرب فرنسا بقصد الوصول من هذا الاتجاه إلى باريس، سافر نيدرماير إلى ألمانيا، وأمضى يومي 8 و9 في قيادة الجيش العليا، قبل أن يقضي إجازة امتدت عشرة أيام في برلين وميونيخ، ويعود يوم 23 آب إلى الجبهة الغربية يصحبة عدد من الضباط الشبان بينهم رائد اسمه هولفيلد.

خلال غياب نيدرماير، غادرت أركانه يوم 17 آب باريس تحت جنح الظلام. كان انسحاب الوحدات الألمانية من العاصمة الفرنسية يشبه الهرب، بل إن المغادرين تعرضوا خلال توجههم إلى خارج المدينة لنيران الرشاشات والقنابل اليدوية، لكنهم نجحوا في تركها دون خسائر. ثم تراكمت المصاعب، فقد كانت الطرق البرية الفرنسية مغلقة، فأخفقت السيارات في عبورها، ووجب تنزيل وإعادة تحميل الأمتعة. وحتى وحدات الـ إس إس كانت تتدفق على الطرقات وهي تفر في اتجاه حدود ألمانيا، بينما كانت حواجز الطرق تحاول وقف التفكك المتمادي.

لم يصل نيدرماير من جديد إلى أركانه في فردان إلا يوم 28 آب. بعد مداولة قصيرة أمر بالتراجع في اليوم التالي نحو الشمال إلى منطقة الأردين

62. مرجع سابق، ص 284.

جنوب بلجيكا، لكنه تلقى يوم 1 أيلول أمر التراجع إلى منطقة كوبلنز. كانت شوارع التراجع تظهر جميع علامات الانهيار البادئ، في حين اختفى من لوكسمبرج ممثلو الحزب، ورئيس الإدارة المدنية، وموظفو السكك الحديدية الألمان وغيرهم من موظفي الدوائر الأخرى. أخيرا، علمت وحدة متقدمة تابعة لنيدرماير أنه وأركانه سيتخذون لهم مقرا في سيمرن إلى الشمال الشرقي من كوبلنز.

التقى نيدرماير يوم 14 أيلول 1944 لآخر مرة مع الجنرال كوسترينج في سيمرن[63]، بحضور مرافق الاخير هانس فون هيرفارت، الذي قاتل في كانون الأول عام 1943 مع نيدرماير ضد الانصار في سلوفينيا، ولاحظ الآن كم يختلف الرجلان في طباعهما وسلوكهما. لم تكن علاقة الاثنين تخلو من التوتر، لكنهما كانا متحدين في رفض هتلر، وفي ميلهما إلى روسيا، وولائهما لسياسة سيكت الشرقية. والآن، عبر نيدرماير لكوسترينج عن اعتقاده أن الحكومة السوفييتية لن تفعل شيئا ضدهما، فاعترض كوسترينج بشدة، وقال ملمحا إلى رتبته الأعلى، إنهما سيشنقان، وإن كانت مشنقة نيدرماير ستكون أقل ارتفاعا، لأنه ليس غير لواء. انطبع جو الحديث بطابع التوقعات المستقبلية المظلمة، فقد كان الرجلان يتوقعان «نهاية ألمانيا» وتفتيتها، وإن كان سيقوم ضرب من دولة ألمانية بين الأودر والفيزر.

سرت في الأسابيع التالية إشاعات حول الأفواج الشرقية، تقدم صورة كارثية عن الوضع العام. كان عسكريون متفرقون يلتحقون بسيمرن، ممن عرفوا مصادفة بوجود مقر أركان فيها. وقد حاولت أركان نيدرماير يائسة إرسال هؤلاء الرجال إلى معسكرات استقبال. في التاسع عشر من أيلول قصفت كوبلنز بالقنابل، فسافر نيدرماير بعد الهجوم بقليل يصحبه العقيد هانسن من سيمرن إلى الجانب الآخر من نهر الراين، حيث قلعة

63. هانس فون هيرفارت: بين هتلر وستالين، ص 261.

شترلتسفيلز. هذا اليوم كان مقيتا، فقد أصيب جسر الراين مرات متعددة خلال الهجوم، فلم يعد اجتيازه آمنا. وقد هز منظر بيوت وشوارع المدينة المدمرة، وعدد الضحايا بين سكانها المدنيين نيدرماير ومرافقه، لذلك كتب هانسن بعد أيام قليلة في يومياته: «بدأت يوم 28 أيلول عام 1944 مأساة جنرالنا المحترم نيدرماير، فقط طلبه القاضي الرئيس في أوب غرب»[64].

64. تركة فالتر هانسن: الأرشيف الاتحادي ـ الأرشيف العسكري. ن 304/14. ص 71.